دكتور جورج حبيب بباوي

موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية
www.coptology.org

خُلاصة تعليم الآباء عن عمل الثالوث القدوس في التدبير

القديس كيرلس الكبير نموذجًا

إهداء

إلى القديسين الذين عشتُ معهم وتعلمت منهم الكثير، وكان لهم الفضل في تسليم الإيمان والحياة الأرثوذكسية:

- أساتذة الكلية الإكليريكية الذين فتحوا لنا كنوز الكنيسة:
- د. وهيب عطا الله (نيافة الأنبا غريغوريوس).
- د. رشدي حنا عبد السيد.
- د. وهيب جورجي الذي تعلمت منه التدقيق في قراءة الكتاب المقدس.
- د. موريس تاوضروس.
- القمص أنطونيوس البراموسي.
- القمص إبراهيم عطية الذي تعلمت منه الشهادة الحسنة.
- القمص صليب سوريال الذي تعلمت منه الشهامة.
- القمص مكاري السرياني (الشهيد الأنبا صموئيل) الذي تعلمت منه العطاء.
- الأستاذ بقطر شحاتة الذي تعلمت منه الثقة في مواعيد الله.

وإلى آباء الأرثوذكسية:

- القمص مينا المتوحد البراموسي الذي تعلمت منه الصلاة.
- القمص متى المسكين الذي تعلمت منه الصلابة.
- القمص ميخائيل إبراهيم الذي تعلمت منه محبة الأعداء.
- القمص يعقوب فرج.
- القمص أقلاديوس لبيب.
- القس شنودة السرياني (نيافة الأنبا يؤنس) الذي تعلمت منه المثابرة.
- الراهب فليمون المقاري الذي تعلمت منه الغفران.
- الأستاذ يسى عبد المسيح الذي تعلمت منه محبة الكنيسة.

لم نترك الطريق ولا الشهادة للإيمان، أمَّا الذين غرسوا مسامير الصليب في يديَّ، فلم يدركوا أنني صرتُ حُرًّا، وأصبح الولاء كله للتعليم، فلم أعُد أحصل على لقمة العيش من الذين كانوا يملكون أن يعطوها أو يمنعوها.

دكتور

جورج حبيب بباوي

٥ يونيو ٢٠١٩

جدول المحتويات

تنويهٌ هامٌ للقارئ ٨

الفصل الأول: الجوهر الواحد..... ١٠

المحبة الواحدة المثلَّثة:..... ١١

وحدانية الجوهر الإلهي: ١٢

توحيد بشارة الحياة:..... ١٣

أعياد الثالوث القدوس تبدأ ببشارة ميلاد الرب الجسد:..... ١٥

استعلان الأقنوم الثاني: ١٩

دوام الفعل الإلهي للكلمة المتجسد:..... ٢١

النضال في نيقية ٣٢٥:..... ٢٢

ما هو مُكوِّن التعليم وعقائد الكنيسة؟..... ٢٣

الخلاف الأساسي بين كل الهرطقات وإيمان الكنيسة الجامعة:..... ٢٤

كلمة أقنوم:..... ٢٤

الفصل بين العاطي والعطية:..... ٢٧

الفصل الثاني: الاتحاد الأُقنومي ينبوع كل السرائر..... ٢٩

شركتنا في بنوة الابن:..... ٣١

لماذا يستحيل على الإنسان المؤلَّه بالنعمة أن يصبح إلهًا بالطبيعة؟..... ٣١

كيف أسَّس التجسُّد شركتنا في الطبيعة الإلهية؟..... ٣٢

تحوُّل ناسوت الرب يسوع..... ٣٣
الأقنوم هو الاستعلان الشخصي للمحبة:..... ٣٤
المحبة المستعلَنة في أقنوم الابن ٣٧
الفصل الثالث: الله محبة، ولذلك هو ثالوث.....٣٨
محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس (رو ٥: ٥)..... ٤١
استعلان الثالوث في الليتورجية..... ٤٣
التدبير يُمارَس في الليتورجية ٤٤
الفصل الرابع: الجوهر الواحد وثالوث الأقانيم "موجز كتاب حوار حول الثالوث للقديس كيرلس الكبير" ٤٦
المسيح هدم كل ما يفصلنا عن الله:..... ٤٧
الجوهر والأقنوم:..... ٤٨
لماذا هو ابنٌ؟..... ٤٩
الحِيَل اللفظية للأريوسيين:..... ٤٩
الابن الوحيد:..... ٥٠
أبناء بالنعمة، لا أبناء من ذات جوهر الآب:..... ٥٠
العلة والمعلول: ٥١
الإمكانية والفعل أو العمل: ٥٢
مثال العقل والكلمة الانسانية:..... ٥٣
الممارسة الكنسية لسر المعمودية:..... ٥٤
سُكنى الروح القدس فينا في سر المعمودية: ٥٤

صيغة الجمع في (تك ١: ٢٦ – ٢٧):..... ٥٥
الرب يسوع المسيح أعطى الشريعة الجديدة:..... ٥٦
الاسم الذي فوق كل اسم:..... ٥٦
بنوة الابن هي بنوة حسب الطبيعة، ليست بالتبني ولا هي هبةٌ بالروح القدس: . ٥٧
رأس المسيح هو الله (١كو ١١: ٣):..... ٥٧
خداع الأريوسية:..... ٥٧
الأريوسية الجديدة: ٥٩
التبني في العهد القديم:..... ٦٠
وحيد الجنس "مونوجينيس":..... ٦١
هذا ما فعله الوسيط ربنا يسوع: ٦٢
هبة الروح أُعطيت عندما خلق الله الإنسانية:..... ٦٤
حلول الابن فينا بالروح القدس: ٦٤
البنوة ليست علاقة شرفية: ٦٥
انفصال الأقانيم مستحيل: ٦٦
إلهٌ وإنسانٌ وصفات الإنسانية في المسيح..... ٦٧
روح الابن:..... ٦٧
هل يأخذ الابن سلطانه ومجده من الآب؟..... ٦٩
هل كان الابنُ يعلم اليوم والساعة؟..... ٧٠
بدون الروح القدس لا شركة لنا في الله: ٧١
ما غاب عن تعليم مدرسة الانفصال عن الثالوث؟..... ٧١

الروح القدس في داخلنا، وهو سبب اتحادنا بالثالوث: ٧٣
أقوال الله هي أقوال الروح القدس:..... ٧٤
ما هو مجد الله؟..... ٧٥
سؤال من القديس كيرلس:..... ٧٥
روح الحرية:..... ٧٦
الكينونة المتبادَلة بين الأقانيم:..... ٧٧
الادعاء المعاصر بأننا نأخذ طاقة وقوة وليس أقنوم الروح القدس:..... ٧٧
اعتراضات المكدونيين وغيرهم:..... ٧٨
الله ثالوث لأنه محبة..... ٨٠

تنويهٌ هامٌ للقارئ

ليس هذا تجميعًا لنصوصٍ آبائيةٍ، بل هو عرضٌ ملخَّصٌ وموجزٌ يهدف إلى تقديم شرحٍ مبسَّطٍ جدًا للعقيدة **من خلال التدبير، أي من خلال علاقة الثالوث بنا نحن البشر الذين صار لنا "رأسٌ" جديدٌ في جوهر الثالوث**، وهو ربنا يسوع المسيح نفسه. آدم الثاني أو الأخير (١كو ١٥: ٤٥)، الذي "نزل من السماء وتجسَّد من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم" لكي يُعلن لنا أقانيم الحياة الإلهية الواحدة، أي الثالوث القدوس.

غاية هذه الفصول هي إعادة حياة الشركة، أي شركتنا في الثالوث؛ لأننا عندما نسمع عبارة "شركة الروح القدس" في البركة الرسولية: "نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس" (٢كور ١٣: ١٤) والتي أعادت ليتورجية الإسكندرية صياغتها وأضافت إليها: "محبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد وشركة وعطية الروح القدس"، فإننا ننال محبة الله الآب في الابن (يوحنا ١٧: ٢٢)، وننال نعمة الابن الوحيد بالروح القدس (١كو ١٢ كله وما بعده حتى ١٤)، وننال "شركة الروح القدس"، أي شركة الله؛ لأننا شركاء الروح القدس في أهم ما يعطيه الروح القدس، وهو قداسته، أي ما يميِّزه في التدبير (عب ٢: ١١).

وشركة الطبيعة الإلهية هي "شركة الروح القدس"، ومَن يتنطع وينكر صحة استخدام عبارة "شركة الطبيعة الإلهية"، فهو ينكر "شركة الروح القدس"؛ لأنه أصلًا يكون قد أنكر حلول الروح القدس، وحوَّلَ هذه العلاقة الإلهية إلى علاقة مع مواهب متعددة، أي علاقة غير شخصية؛ لأن الروح القدس يحلُّ علينا وفينا لكي ننال قوة ومواهب الروح التي هي ثمرة الروح القدس الذي يحل فينا ويمنحنا بحلوله المواهب (١كو ١٢).

وبسبب شوشرة الجهال من بعض إكليروس الوجه البحري التي تحيا بزعامة جوفاء في ملفات الماضي ولا تحيا حسب الروح القدس، فقد وضعنا الهوامش لمراجع الآباء، بل وضعنا بعضها في الحواشي حتى يراجعها القارئ الباحث.

وللرب الواحد، الثالوث الواحد، إلهنا محب البشر، كل سجود وإكرام للواحد غير المنقسم، لا في تجسُّد الابن، ولا في صَلبه، ولا في موته وقيامته، ولا في انسكاب روحه القدوس علينا في العنصرة.

دكتور

جورج حبيب بباوي

الفصل الأول

الجوهر الواحد

(١) الاعترافُ بجوهرٍ واحدٍ للثالوث القدوس، هو اعترافٌ بوحدانية الله، وبأنه ثالوث. وهو اعترافٌ مزدوج. هو جوهر واحد خالق وغير مخلوق ولا يوجد له شبيهٌ في الطبائع المخلوقة. هو:

- حياة واحدة.

- إرادة واحدة مثلثة.

- قداسة وحكمة وقوة واحدة.

والأهم هو محبة واحدة، للآب والابن والروح القدس.

(٢) هو جوهر واحد لا ينقسم لأن الانقسام دخل إلى الحياة المخلوقة مع الخطية، وهو أحد علامات الخطية حسب التعليم الرسولي (رو ٥: ١٢ .. الخ). لقد قسَّم الموتُ الإنسانَ وقسَّم المعرفة، وفَصَل المعرفةَ عن المحبة، بل أخضع الخليقة إلى انعدام الهدف من الوجود، أو إلى البُطل (رو ٨: ٢٠). أمَّا الله، فهو الخالق الذي يعلو جوهره على كل المخلوقات، وله تخضع كلُّ الكائنات ولا يخضع لأحد.

(٣) نحن نعترف بثالوثٍ واحدٍ. وعبارة "متساوي في الجوهر" تؤكد أن جوهر الأُلوهة هو واحدٌ في الآب والابن والروح القدس. الآبُ واحدٌ، ولا آبَ آخر معه. والابنُ واحدٌ، ولا ابنَ آخر غيره، والروح القدس واحدٌ ولا روحَ قدسٍ آخر غيره. جوهرٌ واحدٌ لا

ينقسم ولا يُثلث لأن الثالوث هو تثليث الأقانيم، **ووحدانية جوهر الله تعني أن الجوهر هو حياة الثالوث المُعلنة في أقانيم الثالوث**. حياة واحدة للآب والابن والروح القدس.

المحبة الواحدة المثلَّثة:

(١) محبة الآب أُعلنت في الابن، ومحبة الابن أُعلنت في الروح القدس، ومحبة الروح القدس مُستعلَنة في السرائر وفي سُكنى الروح القدس في المؤمنين.

(٢) محبة الثالوث هي حياة الثالوث، حيث تعلِن المحبةُ حقيقة حياة الله. وجوهر الله هو المحبة "لأن الله محبة"، ولذلك، استعلان جوهر الله الثالوث، هو في استعلان الأقانيم.

(٣) وعندما نعترف بأن جوهر الله غير مُعلَن كجوهر، فهذا يعني ثلاث حقائق أبدية:

الأولى: إن كينونة الله لا تُدرَس ولا تُدرَك بدون استعلان الله. الله لم يُعرَف معرفة حقيقية بالعقل، بل معرفة إنسانية حسب قدرات البشر.

الثانية: إن جوهر الله غير قابل للفحص، واستعلان المحبة الإلهية مُعلَن في الأقانيم وبواسطة كل أقنوم، **لأن "محبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد وشركة الروح القدس" هي استعلان ينبوع المحبة في الآب، وهبة هذه المحبة في الابن، وشركة هذه المحبة بالروح القدس.**

الثالثة: إن الجوهر الإلهي الواحد لا يُعلِن لنا تثليث الأقانيم، ولكن تثليث الأقانيم هو الذي يُعلِن وحدانية الجوهر. فالثالوث يُعلِن جوهر الله، وهو المحبة. والجوهر الواحد هو المحبة الواحدة، واستعلان المحبة الإلهية لله الآب هو في تجسُّد الابن وصلبه وقيامته، وهو في انسكاب هذه المحبة فينا بالروح القدس (رو ٥: ٥).

وحدانية الجوهر الإلهي:

(١) الجوهر الواحد ليس فكرةً فلسفيةً، بل هو تعليمٌ عن بشارة الحياة الجديدة، أي الإنجيل؛ البشارة المفرحة.

(٢) من حياة الثالوث تعلَّمنا وحدانية الله، فهو توحيدُ بشارةٍ مُفرحة. وهو ما يُعلِنه الله عن ذاته، استعلانًا بمثابة دعوة للإنسان لأنْ يقبل نعمة الشركة في الحياة الواحدة، وهي بشارة بالحياة الأبدية (١يوحنا ١: ١-٣).

(٣) بوحدانية الجوهر وتثليث الأقانيم، نوحِّد أنفسنا لكي نخلُص من الانقسام الذي جاءت به الخطية. فالموت هو انحلال قوى الإنسان العقلية (الروحية)، بل والجسدانية، ودخول الإنسان في صراع مع قوى حياته ومع غيره من البشر حتى الحيوانات والنباتات.

(٤) التوحيد بلا ثالوث ليس توحيدًا، بل هو فكرةٌ عقليةٌ تأتي من "الفطرة"، ولا يقود الإنسان إلى ما هو أعظم. وانحدار الإنسان عائد إلى سببين:

الأول: هو أن الإنسان الذي لا يسمو إلى ما هو أعظم منه ومختلف عنه، لا يتطور فكره ولا ترتفع قواه العقلية إلى ما هو أعظم من كيانه. ونحن ننال شركةً فيما هو أعظم، ليس بالنظر العقلي فقط، بل بالشركة فيما ننظر "ونحن جميعًا ناظرين وجه الرب (أقنوم الرب) ... نتغير إلى تلك الصورة عينها" (٢كور ٣: ١٨). وكيف يشترك الإنسان فيما لم يُعلَن له؟

الثاني: خُلِق الإنسان لكي ينمو، فإن توقَّف عن النمو، انحدر أو بقى كما هو. ولأن ما ينمو يزيد، أما مَن يتوقف عن النمو فيفقد ما لديه وما وُهب له، لذلك قال مُعلِّم الحياة: "مَن عنده يزيد (أي ينمو) ومَن ليس عنده (لا ينمو) فالذي عنده يؤخذ منه" (راجع مت ٢٥: ٢٩) عندما يظهر أمام ذاته فقيرًا وكأنه لم يكن له، لأنه لم ينمُ.

(٥) توحيد الحياة الإلهية حسب بشارة الخلاص يعني أن الله نفسه واحد، أي أن حقيقة كيانه لا تسمح بتعدد الأُلوهة. كلمة "واحد" لا تعني شيئًا عن الله نفسه، بل هي ترياقٌ ضد سُم الوثنية حسب شهادة الأنبياء، وهي ضد الشِّرك لأن عبادة آخر مع الله تجعل "المشرِك" غير قادر على تصوُّر أُلوهة واحدة. و"الواحد" هو رقم، والأرقام جائزة عما هو منظور من المخلوقات، واستعمالها جائز لنفي الشِّرك.

(٦) نحن نوحِّد جوهر الله لكي يبقى استعلان التدبير، ولكننا نعترف بالله واحد مُعلَن في الثالوث، لكن الله يعلو على كل استخدام للأرقام. ورقم "ثلاثة" خاصٌّ باستعلان محبة الله، وهو وإن كان يبدو "عددًا" إلَّا أن العدد هو في فهم حركة استعلان المحبة الواحدة للثالوث.

(٧) الحقُّ ليس مجردَ نفيٍ للخطأ، بل هو قبولٌ لما هو حقيقي حتى وإن ظهر غريبًا على عقل وخبرة الإنسان. بشارة الحياة هي نورٌ يُشرق في الظلمة وليست مجرد لعنة الظلمة. هي هبةُ حياةٍ للموتى وليست نفيًا لفظيًّا لكلمة الموت. الحق المستعلَن هو شخصُ الذي قال: "أنا هو الحق"، ليردَّ الإنسان إلى الله من العبودية إلى التبني، ومن الانقسام إلى الوحدة بالتشبُّه بمن هو ثلاثة وواحد.

توحيد بشارة الحياة:

(١) عندما صار الإنسان أسيرًا للموت بسبب عدم الحياة "كصورة الله ومثاله"، لأن الصورة تستمد شكلها وجوهر حياتها من الأصل، ولأن الإنسان الأول رفض "نعمة الصورة" وأراد أن يكون صورةً لذاته، لذلك أشرق نور الحياة من جديد بواسطة مَن هو "صورة الله غير المنظور"، أي صورة الآب لكي يعلِن لنا لا بالأقوال فقط، بل بالأفعال أيضًا أبوة الله وعلاقته الخاصة الأُقنومية بالروح القدس. إعلانٌ عن وحدانية الله.

(٢) عندما جاءت الوصية: "اسمع يا اسرائيل الرب إلهك ربٌّ واحد"، ثم إضافة "وتحب الرب إلهك .. وقريبك كنفسك"، صارت المحبة هي بداية معرفة لاهوتية جديدة

في وسط الكم الهائل من طقوسٍ وذبائح. وجاء العهد الأول، وهو عهد استرداد الحرية في أرضٍ غير أرض مصر، لأن محبة الآخر كسيد كانت شبه مستحيلة. وضَرَبَت هذه الوصية آلهة المصريين بالتوحيد: "أنا الرب الذي أخرجك من أرض مصر لا يكن لك آلهةٌ أخرى أمامي"، فصار التوحيد ضمن رسالة الخلاص.

(٣) وصار "عيد الفصح" ليس فقط عيد الخروج، بل عيد انتصار التوحيد على الوثنية مؤكِّدًا أن الخالق هو المخلِّص، وصار الإيمان يُحتَفَل به في الأعياد، وهي أعياد التوحيد في أرض كنعان أقدم مكان للوثنية، لكي يؤهَّل الشعب لمجيء مُعلِن "التوحيد الحي"، توحيد الخلاص وبشارة الحياة.

(٤) وعندما أسَّس الربُّ يسوع تدبير الخلاص، هدم الموت، وتجلَّى الثالوث بعطية المحبة الواحدة للآب والابن والروح القدس في خلق الإنسان من جديد، فصار المسيح الرب هو "آدم الأخير"، وهكذا استُعلِنت المحبة باستعلان الأقانيم، لأنها حركة حياة إلهية، وصارت أعياد التدبير: التجسد – معمودية الأردن – الصلب – القيامة، والعنصرة هي أعياد الثالوث القدوس.

(٥) واستعلان تمايُز الأقانيم هو استعلان المحبة الثالوثية، لأن الثالوث كشف عن كيانه للإنسان كمحبة. ولكن عندما تم هذا في "زمان التدبير"، سقط الهراطقة في عدم التمييز بين ما أُعلِن في زمان التدبير، وما هو كائن منذ الأزل وإلى الأبد في الذات الإلهية، والذي لم يكن "استعلانًا زمانيًا" لأن الزمان هو مجال *Skopos* استعلان الخالق، والاستعلان في الزمان مستحيل إن لم يكن التدبير سابقًا على الزمان، بل وكل الأزمنة.

وعند تمام الزمان "أرسل الله ابنه تحت الشريعة لكي ننال التبني" (غلا ٤: ٤). والفعل "أرسل" يختلف عن الفعل "خلق"، لأن الخلق تم في الأيام الستة الأولى، أما الخلق الجديد، فقد جاء من "السماء" لكي يتم تجديد الخليقة في المسيح وبالمسيح، لأن السابق على الزمان كله، صار في الزمان، أو حسب تعبير رسول الرب "أيام إنسانيته"، أو "أيام تجسده" (عب ٥: ١٢). وكانت عثرة أريوس هي فرض الزمان على الابن وسلب المحبة

الإلهية من محبة "رسول اعترافنا"، أي سلب يسوع المسيح من مساواته بالآب.

أعياد الثالوث القدوس تبدأ ببشارة ميلاد الرب الجسد:

(١) المحبة لا تعلَن إلَّا في استعلان أقانيم الثالوث، لأن استعلان أقانيم الثالوث هو حركة حياة إلهية تهدف إلى أن يتعرف الإنسان على الله الثالوث في حياته. جاء الابن من عند الآب، وجاء الروح من عند الآب والابن، وعن ذلك قال الرب عن الروح القدس: "يرسله الآب باسمي"، فجاء فعل "أرسل"، والغاية هي التي تحدد معنى الفعل، لأن عمل الله ليس حركةً من مكانٍ إلى آخر، بل هو حركة حياة داخلية، هي حركة الحياة الإلهية. فالثالوث هو كيف يحيا الله، لأن الله يعلو على الزمان والمكان والمسافات. هو واهب الوجود والحياة والحركة لكل كائن "به نحيا ونوجد ونتحرك".

(٢) أقنوم الابن هو محور التدبير، أعلن لنا أن البنوة في جوهر الله ليست صفةً، بل "تعيينًا" متمايزًا، وهي ليست طارئة بل أزلية، لأن الابن له المجد "مولود من الآب قبل كل الدهور" حسب اعتراف الآباء في نيقية ٣٢٥. الولادة من الآب ليست ولادة تثمر كائنًا خارج الألوهة مثل ولادة البشر من الأمهات بعد الحبل، إذ لا يوجد داخل وخارج في الله[١].

(٣) عندما قال الربُّ: "الآب يحب الابن"، فقد أشار إلى حركة المحبة الإلهية، لأن ولادة الابن هي ممارسة الآب للمحبة، التي عبَّر عنها "أقنوم" وكلمة "الابن"، ولذلك قال رسول الرب بولس: "ابن محبته". ووحدانية الآب والابن (يو ١٠: ٣٠) ليست فقط

---

(١) يقول القديس أثناسيوس الرسولي: "فإن كان هو يدعى ابنًا أزليًا للآب، فحسنًا يُقال. لأن جوهر الآب لم يكن ناقصًا أبدًا، حتى يضاف إليه (ابنه) الخاص به فيما بعد. وأيضًا فإن الابن لم يولد (من الآب) كما يولد إنسانٌ من إنسانٍ، حتى يُعتَبر انه قد جاء إلى الوجود بعد وجود الآب، بل هو مولود الله، ولكونه ابن الله الذى هو من ذاته (من ذات الله) الكائنُ من الأزل. لذلك فإنه هو نفسه (أي الابن) كائنٌ من الازل. فبينما خاصية طبيعة البشر أنهم يلدون في زمنٍ معيَّنٍ. بسبب أن طبيعتهم غير كاملة. أما مولود الله فهو أزليٌّ، بسبب الكمال الدائم لطبيعته" (ضد الأريوسيين ١: ١٤).

هي وحدانية الجوهر، بل هي أيضًا وحدانية المحب والمحبوب. ومرةً ثانية، الأرقام تجمع ما هو منفصل، وتطرح ما هو مجموع، وتقسِّم لبيان ما هو خاص وقابل للتوزيع. هذا خاصٌّ بما هو منظور.

(٤) الأسماء لا تسبق الوجود، نحن نعطي الأسماء لما هو موجود، أو بدقة أكثر، ما هو كائن، لأن الكينونةَ أسبق. والكائن يختلف عن الموجود، لأن الكائن له "حضور" متمايز، بينما "الموجود" اسمٌ غامض نابع من الإحساس والشعور فقط، أما الكائن فبالإدراك الشعوري والإرادي والعقلي نعرفه بالصداقة والألفة، والأهم بالمحبة. الابن كائنٌ قبل استخدام الاسم، وكينونة الابن هي التي تحدد معنى الاسم، لا الاسم هو الذي يحدد معنى الكينونة[١] (لاحظ أن كلمة "موجود" هي اسم مفعول في اللغة العربية لا يجوز استخدامه بالمرة في الخطاب عن الله).

(٥) الأرقام هامةٌ في تدبير حياة الإنسان ولكنها لا تصلح لبيان ما هو كائن على مستوى الإدراك. نحن نستطيع أن نقول إن من الفضائل ثلاثة: التواضع – الحكمة – القداسة. ومع أن الرقم (٣) يمكن أن يجمَع إلَّا أن الرقم (٣) نفسه لا يشرح لنا تداخل التواضع والحكمة والقداسة.

وتعبير "ابن الحكمة" لا يعني ولادة واحد من آخر، أي ولادةُ ابنٍ من الحكمة، أو ولادة الحكمة من التواضع، بل الولادة هنا تعني كيف يرى الإنسان علاقة فضيلة بأخرى.

لا توجد فضيلة مستقلة، فلا قداسة بدون حكمة ولا حكمة بدون تواضع. ولذلك –في نفس النسق– لا محبة بدون عطاء ولا عطاء بدون صلاحٍ وَجُود. وقد وقف

(١) يقول القديس أثناسيوس: "ليست الألفاظ هي التي تقلل من قدر طبيعة الأشياء، بل بالأحرى فإن طبيعة الأشياء هي التي تضفي المعنى على الألفاظ وغيرها. لأن الألفاظ ليست سابقة على جواهر الأشياء، بل إن الجواهر هي الأولى والألفاظ تأتي تالية لها" راجع ضد الأريوسيين ٢: ٣.

القديس أثناسيوس ضد تعليم الأريوسية القائل بأن الله "عقيم"، ليس بقياس الألوهة على الولادة والعقم الإنساني، بل باكتشاف حقيقة "خصوبة" الذات الإلهية[١]، لأن "خصوبة الذات الإلهية هي التي تجعل الإنسان ينال شركةً في الحياة الإلهية، لأنها "حياةٌ خصبةٌ"[٢]، ولذلك يُوصَف الله بأنه "الينبوع" والابن هو النهر[٣]. واجتماع النهر والماء هو حركة الحياة المخلوقة التي تؤكد لنا أن الحياة كينونةٌ وعطاء. أما على المستوى الإلهي، فهو غنى الألوهة بما تملك، وقدرتها على العطاء.

---

(١) يقول القديس أثناسيوس الرسولي: "كيف إذن لا يكون كافرًا مَن يقول "كان وقت ما عندما لم يكن الابن فيه موجودًا؟ لأن هذا مثل الذى يقول تمامًا "كان هناك وقت كان فيه الينبوع جافًا خاليًا من الحياة ومن الحكمة". ولكن مثل هذا الينبوع لا يكون ينبوعًا. لأن الذى لا يلد من ذاته لا يكون ينبوعًا. يا لكثرة السخافات التي في هذا القول لأن الله يعد الذين يصنعون مشيئته أنهم سيكونون كينبوع لا تنضب مياهه إطلاقًا، كما يقول أشعياء النبي "وسيشبعك (الرب) كما تشتهى نفسك، وتتشدد عظامك، وتكون كحديقة مروية جيدًا، وكينبوع مياهٍ لا تنضب مياهه" (أش ٥٨: ١١) فبينما أن الذى يُقال عنه، والذى هو في الحقيقة ينبوع الحكمة، يتجاسر هؤلاء ويجدفون عليه قائلين إنه عقيم ومجدب من حكمته الذاتية. إلَّا أن أقوالهم هذه الصادرة عنهم، إنما أقوالٌ زائفة، أمَّا الحقيقة فتشهد بأن الله هو الينبوع الأزلي لحكمته الذاتية، ولما كان الينبوع أزليًا، فبالضرورة يجب أن تكون الحكمة أزلية أيضًا، لأنه من خلال هذه الحكمة خُلِقَت كل الأشياء، كما يرتل (يزمر) داود في المزامير "كلها (أي الأعمال) بحكمةٍ صنعت"(مز ١٠٣: ٢٤ (السبعينية) مز ١٠٤: ٢٤ في الطبعة الشائعة) ويقول سليمان "أسس الله الأرض بالحكمة وبالفهم هيأ السموات" (أم ٣:١٠). ضد الأريوسيين ١: ١٩.

(٢) يقول القديس أثناسيوس الرسولي: "لأنهم إن كانوا ينسبون لله أنه بالمشيئة يُوجِد الأشياء غير الموجودة، فلما لا يُقِرّون بأن في الله شيئًا أعلى من المشيئة، ألا وهو **الطبيعة الخصبة**، وأن يكون أبا لكلمته الذاتي؟" راجع ضد الأريوسيين ٢: ٢.

(٣) يقول القديس أثناسيوس الرسولي: "وأما الابن فمن جهة علاقته بالينبوع يدعى نهرًا: "نهر الله ملآن ماء" (مز ٦٤: ٩)، ومن جهة علاقته بالنور يدعى اشعاعًا، اذ يقول بولس: "الذي هو شعاع مجده ورسم جوهره" (عب ١: ٣). ومن ثم حيث أن الآب نور والابن هو شعاعه، فلا ينبغي أن نتحاشى تكرار نفس الأشياء عنهما مرات كثيرة. ويمكننا أن نرى في الابن، "الروح" الذي بواسطته نستنير: "لكي يعطيكم روح الحكمة والاعلان في معرفته مستنيرة عيون قلوبكم" (أفسس ١: ١٧، ١٨). ولكن حينما نستنير بالروح، فالمسيح هو الذي ينير فيه (أي في الروح) لأنه يقول: "كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان، آتيًا إلى العالم" (يو ١: ٩) وأيضًا، حيث أن الآب ينبوعٌ، والابن يسمى نهرًا، **لذلك نقول إننا نشرب الرب**. لأنه مكتوب: "جميعنا سقينا روحًا واحدًا" (١كو ١٢: ١٣) **ولكن حينما نشرب الروح، فإننا نشرب المسيح**. "لأنهم كانوا يشربون من صخرةٍ روحيةٍ تابعتهم، والصخرةُ كانت المسيح" (١كو ١٠: ٤)". الرسائل عن الروح القدس إلى سرابيون ١: ١٩.

(٦) وعلى ذلك، فالابن ليس صفةً، بل اسمٌ لمن هو كائنٌ. وكينونة الابن هي التي تُمنَح فيها "عطية التبني"، والتبني وإن كان غيرَ منظورٍ كما هو الحال في كل مجالات الحياة الروحية والعقلية، لذلك صارت عطية التبني في المسيح يسوع ابن محبة الآب هي استعلان الكينونة أو الوجود الجديد الذي أُعطيَ، لا لكي يشفي ما أصاب الطبيعة الإنسانية فقط، بل أيضًا لكي يحرر هذه الطبيعة من كل سلاسل الفساد، فلا نعود نقع مرةً أخرى في "مصيدة" سيطرة الطبيعة على الحياة، وهي السيطرة التي نراها في كل الكائنات غير العاقلة مثل الحيوانات التي تكوِّن وعيها بقوة الطبيعة أو ما يسمى "بالغريزة"، لأنها مما هو مغروسٌ فيها ولا يمكن التحرر منه.

(٧) لقد عرفنا البنوة في المسيح. هذا هو الواقع الجديد المستعلَن في شخص ربنا يسوع المسيح الذي جاء إلينا إلهًا وإنسانًا معًا، فلم يعد للوجود الإنساني دائرتان منفصلتان هما "الله والانسان". أصبح الإنسانُ يعرف الله في الحياة المتجسدة، أو حسب تعبير القديس أثناسيوس: "الحضور المتجسد"[١] للابن مُعلِن الآب، ومُعلِن ذاته في تجسده وصلبه وقيامته، ومُعلِن الروح القدس كهبة وعطية.

لقد نُشرت "شبورة" كثيفة من جدلٍ عقيم في السنوات الأخيرة عن مساواة البشر بالابن، وعن الفرق بين المسيح والمؤمنين. بل وجرى التعتيم على "دستور المحبة" في (١كو ١٣: ١-٨)، وهي الكلمات الخالدة لا عن قوة المحبة فقط، بل عن عنفها أيضًا، **لأن المحبة تقبل التعدد على مستوى البشر، وتعمل بالتثليث على المستوى الإلهي.**

---

(١) يستخدم القديس أثناسيوس تعبير الحضور أكثر من مرة في كتابه تجسد الكلمة، ليعبِّر به عن تجسد الابن الكلمة: "وماذا كان يمكن أن يتم سوى تجديد الخليقة التي وُجدت على صورة الله، مرّة أخرى، ولكي يستطيع البشر أن يعرفوه مرّة أخرى؟ ولكن كيف كان ممكنًا لهذا الأمر أن يحدث إلَّا بحضور نفس صورة الله – مخلّصنا يسوع المسيح" (١٣: ٧). "ففي هذه الحالة لابد من حضور صاحب الصورة نفسه ثانية لكي يمكن إعادة تجديد الصورة على نفس قماش اللوحة" (١٤: ١). "وكما أنه بواسطة هذه الأمور عُرِفَ **حضوره جسديًا** كذلك بواسطة الأعمال التي عملها في الجسد أعلن نفسه أنه ابن الله" (١٨: ٢). "جميع هذه الأمور أوضحت أن المسيح الذي على الصليب هو الله، وأن الخليقة كلها خاضعة كعبد له، وأنها شهدت برعبها لحضور سيدها" (١٩: ٣). "لأنه حتى على الصليب فإنه لم يجعل نفسه مختفيًا بل بالحرى فإنه جعل الطبيعة تشهد لحضور خالقها" (تجسد الكلمة ٢٦: ١).

ويظهر عقمُ هذا الجدل في أنه لا يأخذ في الاعتبار ما جاء به تجسد ابن الله، لأن التجسد جاء باستعلان "مكانة" الإنسان "الجديدة" في يسوع المسيح، وأن معرفتنا بالله يجب أن تمر من خلال "مصفاة" التدبير التي تمنع رواسب الوثنية وخيالات الإنسان.

التعدد يفرّق بسبب الخوف والأنانية والأمراض الروحية التي تُسمى باسمٍ غامضٍ هو "الخطايا"، لأن الخطية هي "التعدّي" والتعدّي هو الخروج على الحياة وتحوُّل الطبيعة إلى صورة لذات الإنسان، صورة للإنسان بدون الله. وعندما قال الرب: "مَن لا يجمع معي فهو يفرّق"، أضاف إليها العلامة أوريجينوس: "يفرّق مع الشيطان"، لأن الافتراق يعني انحصار الإنسان في كيانٍ مستقلٍ له صورة معروفة تُسمى "النرجسية"، وهي المرض الذي يضرب الزعامات التي وُلِدَت من خلال احتياجات الجماعات الإنسانية، والبحث عن "زعيم قوي قادر على القتل".

كان ستالين هو صاحب العبارة المشهورة: "توجد مشاكل يعني يوجد بشر"، وقتل البشر هو حلٌّ للمشاكل، ويُقال إن ٢٠ مليون فلاح روسي قُتلوا في مشروع المزارع الجماعية.

الشيطان هو القوة التي دخلت إلى النظام الكوني لكي تزعزع أساساته، وتضرب الحرية بالعبودية، وتضرب المحبة بالأنانية والإفراط في حب الذات.

استعلان الأقنوم الثاني:

(١) علاقتنا الجديدة مع الثالوث لم تأتِ من أقوالٍ فقط، ولا من نبواتٍ فقط، بل أيضًا استُعلِنت في اللحم والدم (عب ٢: ١٤)، لأن "الكلمة صار جسدًا" والكلمة أو اللوغوس، أو الحكمة، وهو التعبير العبراني المرادف للكلمة اليونانية يؤكّد لنا أن الاستعلان هو: أفعال وحركة حياة.

الكلمةُ ليس كلمةً ننطقها، ولكنه الفعل الإلهي الذي يعبّر عما في الذات الإلهية.

هو "تعيينٌ" أو "تخصيصٌ"، وهذه أقرب وأوضح الكلمات العربية لكلمة "لوغوس".

الرأس أو اليد أو القدمين في جسم الإنسان، ليست مجرد أسماء، بل أسماءٌ لها دلالة في الواقع وفي حياة كل إنسان. والإشارة إلى أو استخدام اسم عضوٍ معيَّنٍ في جسم الإنسان يؤكد لنا:

– أن العضو يحيا ذات حياة الجسد كله.

– الوظيفة الحيوية الخاصة بكل عضو، والتي تُمكِّن الجسد كله من الحياة (راجع ١كو ١٢: ٢٠-٢٥).

ومن أجل تأكيد خصوصية استعلان الابن، جاء الابن متجسدًا لكي يعلن في شخصه الإلهي – الإنساني هذه العلاقة الجديدة التي يمكن أن تُوصف بكلمات أو تُكتب في رسالة، ولكن وراء كل سطر عن "أفعال" الرب، نجد الفعل مرسومًا بحروف اللغة أيًّا كانت.

(٢) والإصرار على تأكيد "الفعل والحركة" هو إصرارٌ على تأكيد حياة الشخص، وأنه عضوٌ، رغم ضعف كلمة "عضو"، أو بدقة أكثر هو "تعيينٌ" في الذات الإلهية بدونه يصبح الاستعلان أقولًا لا يمكن التأكد من صحتها، لأنها لم تُعلَن كأفعال. والمثال الواضح على ذلك هو غفران الرب لخطايا البشر، وهو تعليمٌ كان جديدًا جدًا في المجتمع اليهودي وفي الصلاة الربانية: "اغفر لنا .. كما نغفر نحن أيضًا ...". لذلك لم تقبله اليهودية، لأن الغفران هو حق الله الذي يسود على جماعته بواسطة الشريعة.

هكذا كان سلوك الرب مع البشر الذين تحدث معهم، أو كان له معهم حوارٌ عن الشريعة أو غيرها عن أمورٍ تبدو بشكلٍ سطحي أنها أقوال، ولكن السرد نفسه يؤكد أنها أفعال. وحتى أمثال الرب التي تبدأ بـ "يشبه ملكوت السموات ..."، فهي تأتي لتأكيد رؤية الله، وضرورة قبول الخبر السار أو بشارة الإنجيل كما في لوقا ١٥: أمثال

الدرهم المفقود – الخروف الضال – الابن الضال. لأن الأمثال هي رؤية الرب لما يعرفه عن الملكوت، لا مجردَ وصفٍ له. ولأن الملكوت يعلو على تصورات العقل، جاء الرب بالأمثال مؤكِّدًا أنه "يُشبه" ما نعرفه نحن عن الحياة، عن الزارع، عن شبكة صيد الأسماك .. الخ، ولذلك جاء نبعُ الغفرانِ بالصلب والقيامة. مات بالجسد الذي أخذه من والدة الإله، هذا الجسد الذي "كنا ممسكين به، مَبيعين من قبل خطايانا" مات، لكي يُبيد الربُّ الموتَ في جسده الذاتي / الخاص به حسب تعبير القديس أثناسيوس المتكرر في تجسد الكلمة[١].

كان ممكنًا للرب أن يطرد الموت، ولكن الإنسان كان سيبقى مُعرَّضًا للموت والفساد، أي لتحلل الكيان الإنساني وافتراق النفس عن الجسد، وهو الموضوع الذي شغل فصول تجسد الكلمة[٢].

دوام الفعل الإلهي للكلمة المتجسد:

(١) عندما ندرس التدبير يجب أن يستقر في الوعي أن الخطاب عن تجسد الكلمة هو عودة مباشرة للخطاب عن الإنسان. ليس فقط عن احتياجات الإنسان مثل غفران الخطايا، بل عن تجديد الكيان الإنساني، وتحول الإنسان من الموت إلى الحياة. وعندما نعود إلى الإنسان، فنحن نعود إلى الخطاب عن الله، وذلك لأن الخطاب عن

(١) راجع على سبيل المثال ٨: ٣، ٤ – ٩: ٢ – ١٠: ١ – ٢٠: ٢، ٦ – ٢٢: ٥ – ٢٥: ٦.

(٢) يقول القديس أثناسيوس: "إذن، ماذا كان يجب أن يُفْعَل حيال هذا؟ أو ما الذي كان يجب على الله أن يعمله؟ أيطلب من البشر التوبة عن تعدياتهم؟ ويمكن أن يرى المرء أن هذا يليق بالله ويقول: كما أن البشر صاروا إلى الفساد بسبب التعدي، فإنهم بسبب التوبة يمكن أن يعودوا إلى عدم الفساد وللخلود ... فلو كان تَعدِّي الإنسان مجرد عمل خاطئ ولم يتبعه فساد، لكانت التوبة كافية. أما الآن بعد أن حدث التَعَدِّي، فقد تورّط البشر في ذلك الفساد الذى كان هو طبيعتهم ونُزِعَتْ منهم نعمة مُمَاثَلَة صورة الله، فما هي الخطوة التي يحتاجها الأمر بعد ذلك؟ أو مَن ذا الذي يستطيع أن يُعيد للإنسان تلك النعمة ويَرُدّه إلى حالته الأولى إلّا كلمة الله الذي خَلَقَ ـ في البدء ـ كل شيء من العدم؟" (تجسد الكلمة ٧: ٢، ٤)

الإنسان هو خطابٌ عن الله خالق الإنسان، وسبب وغاية وجوده في هذا الكون. وخطابنا عن الله هو خطابٌ في نفس الوقت عن الولادة الأزلية للابن، الأمر الذي جعل رسول الرب بولس يكتب: "اختارنا فيه قبل خلق العالم .." (أفسس ١: ٣-٤).

النضال في نيقية ٣٢٥:

(١) لم يكن النضال في مجمع نيقية حول تأويل نصوص الكتاب المقدس، بل كان:

أولًا: ردًّا على التأويل الخطأ.

ثانيًا: كان ولا يزال تأكيدًا على شخص أو أقنوم المخلص.

لذلك يجب الابتعاد عن القراءة السطحية لوثائق التاريخ. من الصعب أن نتصور أن شخصًا مثل أثناسيوس يُنفى ويُطارَد من أجل تأويل نصوص الكتاب المقدس بعهديه.

(٢) جميع الهرطقات الحديثة والقديمة تبدأ بنصوصٍ وبتأويلِ نصوصٍ.

لقد وصلت المانوية إلى الحد الذي وضعت فيه "مزامير". وسلكت الغنوسية ذات الطريق بوضع أناجيلٍ عُثِرَ على القسم الأكبر منها في "نجع حمادي" مثل إنجيل توما .. الخ.

والعقيدة التي تبدأ بنصوص تسير دائمًا في طريق التأويل ولا تتوقف عن التأويل. هي مُنتَج فكري وثقافي وُضِع لشرح وتأكيد إيمان الشيعة أو المذهب الذي تكوَّن **أولًا**: برفض الإيمان القويم (الأرثوذكسي). **وثانيًا**: تأكيد إيمان الهرطقة وعقائدها بما وُضِع من نصوصٍ تحمل اسم رسولٍ من رسل المسيح. لذلك نجد أن كل الهرطقات تحاول الانتماء بشكلٍ واضحٍ إلى ما سُجِّل في التاريخ.

ويبقى السؤال الهام:

ما هو مُكوِّن التعليم وعقائد الكنيسة؟

(١) يجيء الرد من التاريخ كما سجَّله العديد من الآباء وهو:

– ما هو معروف ومقبول في كل مكان، إنه إيمان الكنيسة الجامعة الكاثوليكية[١].

– ما استُعلِن من علاقةٍ تشهد لها الوثائق، ولكنها ليست خلاصة ما ورد في الوثائق، ولعل عبارة الشهيد أغناطيوس الأنطاكي هي خير شهادة، لأن وثائق أغناطيوس "وثائقي القديمة هي يسوع المسيح، والوثائق التي لا يرقى إليها الشك ولا يقدر أحد أن يعارضها هي صليبه موته وقيامته" (رسالته إلى فيلادلفيا ٨: ٢).

– إيمان الكنيسة الجامعة (رسالة أغناطيوس إلى سميرنا (ازمير) ٨: ٢)[٢]. والكنيسة الواحدة (عظات كيرلس الأورشليمي ١٨: ٢٦)[٣]، وغيرهم من الآباء.

---

(١) راجع، القديس إيرينيئوس، ضد الهرطقات ١: ١٠: ١، ٢.

(٢) "حيثما يكون الأسقف، فهناك يجب أن تكون الكنيسة. كما أنه حيث يسوع المسيح، فهناك الكنيسة الكاثوليكية (الجامعة)" راجع ترجمتنا لرسائل الشهيد أغناطيوس الأنطاكي، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، يناير ٢٠١٦، ص٦٠.

(٣) "وبما أن اسم "جماعة – كنيسة" يُستعمل في أمورٍ مختلفة، كما هو مكتوب عن الحشد في مسرح أفسس: "وصرف الجماعة بعد هذا الكلام" (أع ١٩: ٤٠)، فيمكن القول بالمعنى الحقيقي إن هناك كنيسة الأشرار وجماعة الهراطقة، وأعني بهم جماعة مرقيون وماني وغيرهم. لذلك فإن قانون الإيمان يعلمك ما يجب أن تؤمن به بتأكيد: "وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة، لكي تتجنب اجتماعاتهم المرذولة، وتبقى دائمًا في الكنيسة المقدسة الجامعة التي وُلدتَ فيها من جديد. وإذا سافرت يومًا إلى مدنٍ أخرى فلا تسأل فقط: أين بيت الرب؟ (لأن بدع الملحدين الأخرى تُسمي كهوفها "بيوت الرب")، ولا أين "الكنيسة" فقط، بل أين "الكنيسة الجامعة"؟ لأن هذا هو اسم الجماعة المقدسة التي هي أُمنا جميعًا، وعروس ربنا يسوع المسيح ابن الله". كيرلس الأورشليمي، العظات، تعريب الأب جورج نصور، أقدم النصوص المسيحية، سلسلة النصوص الليتورجية ٢، رابطة معاهد اللاهوت في الشرق الأوسط، الكسليك، ١٩٨٢، ص ٣٧٠

الخلاف الأساسي بين كل الهرطقات وإيمان الكنيسة الجامعة:

(١) إيمان الكنيسة هو تأكيد حقيقة شخص أو أقنوم الله الكلمة المتجسد، الحاضر دائمًا في كل الدهور، تشهد له الوثائق، لا الذي يأتي من الوثائق، بل من الاختبار الحي في اجتماع الكنيسة يوم قيامة المخلص، المعروف حاليًا بيوم الأحد. فلاتزال كل الكنائس الأرثوذكسية تقرأ الفصول الخاصة بالقيامة في الأناجيل الأربعة في بخور باكر، ولازالت الكنيسة البيزنطية ترتل لقيامة الرب يوم الأحد في بخور باكر.

(٢) إذن، ليست القضية الأساسية هي وجود نصوص أم عدم وجودها، بل الإيمان بالحي إلى الأبد الذي يوزّع حياته يوميًّا على كل الذين لهم شركة معه.

كلمة أقنوم:

(١) من العبرانية جاءت كلمة "وجه" وهو التعبير عن الشخص، وصارت في اليونانية *Persopon* ولكن الهرطقات التي حاولت هدم الإيمان وجدت في الكلمة مدخلًا لاعتبار الابن وجودًا مخلوقًا، لأن "الوجه" تعبيرٌ عن حضورٍ واستعلان، و"قسمات الوجه" هي التي تؤكد ذلك بما يظهر على الوجه من سعادة وفرح أو حزن أو ألم .. إلخ

كان هجوم الأريوسية الذي دام ما يقرب من ٣٠٠ سنة حتى بعد اجتماع الآباء القديسين في نيقية ٣٢٥ هو أحد أسباب هجرة المصطلحات كلها والتمسك بالكلمة اليونانية *Hypostasis* لأن الكلمة اليونانية *Hypostasis* تعني ما هو كائنٌ فعلًا، لا ما هو مجرد تعبير[١]. هكذا استقامت أدوات التعبير، لأن الكلمات تشكِّل

– ٣٧١.

(١) راجع، الوجود شركة، للمطران زيزيولاس، تعريب د. جورج حبيب بباوي، مركز دراسات الآباء، القاهرة، عدة طبعات.

الوعي وتفتح طريقًا جديدًا دائمًا لتطور الفكرة، ولذلك حرص الآباء على صياغةٍ أكثر دقة:

جوهر واحد وثلاثة أقانيم

وهو ما شرحه القديس باسيليوس الكبير في الرسالة رقم ٣٨: الجوهر ما هو عام ومشتَرَك، والأقنوم *Hypostasis* ما هو خاص.

فالألوهةُ هي جوهر الله، والأقنوم هو الأبوة، وهو البنوة، وهو الانبثاق، أي الآب والابن والروح القدس.

ما هو خاص، أي الأقنوم، لأن هدف الاستعلان هو "التبني" وهو ليس رسالةً لفظيةً فقط، بل هو عطيةٌ كيانيةٌ من كيان الابن، لأن الإنسان عندما يتَّحد بالابن، يشترك في بنوته، أي في حياته الأقنومية الخاصة. وعندما كتب رسول الرب: "أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة" (غلا ٤: ٤)، فقد جاء كابنٍ، وليس مجرد تعبير (وجه). والفعل "أرسل" هو حركة المحبة، هو فعلٌ من الآب، جاء الابن إلينا متجسدًا ليفتح لنا رجاء حياةٍ جديدةٍ بالشركة، لا بمجرد التأمل العقلي وحده. وإذا فقدنا الشركة، فقدنا كلَّ شيءٍ واستقر فينا الوعي الإنساني وحده بأننا ثمرة الولادة الجسدانية.

(٢) وعندما يذكر يوحنا تلميذ الرب أن الرب يسوع هو "الابن الوحيد"، فهو لا ينفي بنوتنا لله الآب، ولكنه يؤكد "تعيين" وخصوصية الابن، فهو وحده المولود منه "قبل كل الدهور"، مولودٌ إلهٌ من إلهٍ، إلهٌ حق من إلهٍ حق. وشركتنا في بنوة الابن هي شركة في أبوة الآب، وهي لا تعني تحوُّل الإنسان إلى آبٍ أو ابنٍ مثل الآب ضابط الكل والابن الوحيد. وهي ليست شركة مؤقتة زائلة، أو علاقة معنوية بلا كيان، ولكن علينا أن نميز:

أولًا: أن اسم "الابن الوحيد" هو تأكيدٌ على بنوة الابن المستعلَنة لتحرير العبيد

من النظام البيولوجي للوجود، أي من سيطرة الطبيعة على الشخص.

ثانيًا: أن بنوتنا لله لا تعني أننا نُولد من ذات جوهر الآب، ليس فقط لأن ولادتنا تتم في الزمان، بل ولأن ولادتنا هي هبة وعطية، بينما ولادة الابن هي الحركة الذاتية في جوهر الآب والابن والروح القدس.

ثالثًا: أن الإغراق في التمييز بين الهبة أو النعمة، والجوهر أدَّى إلى اعتبار النعمة مخلوقة، وهذا خطأٌ جسيم لأن اعتبار النعمة مخلوقة، هو بمثابة هدمٍ لحقيقة علاقتنا الشخصية أو الأقنومية بالثالوث. لقد اتهمني الأنبا بيشوي مطران دمياط السابق بأغرب اتهام سُمع في تاريخ الكنيسة، وهو أنني أقول إن البشر أقانيم، وزاد في تحديد الاتهام بأنني قلت: مثل أقانيم الثالوث. هذا العبث بالألفاظ يخفي خلفه عدم تمييز خطير، لأننا صورة الله ومثاله في الوجود الذي يعبَّر عن أقنوميته بلفظ أو ضمير "أنا" (تجسد الكلمة ٤: ٦)[١]. نحن أقانيم فعلًا، ولكن صورةً ومثالًا. وكلمتا (الصورة والمثال) تنفيان تمامًا أننا مساوون للأصل، بل صورة الكينونة، ومثال التعدد والوحدة، تعدد الأفراد، ووحدة الطبيعة الإنسانية.

رابعًا: أن العلاقة الكيانية الشخصية هي ينبوع الحياة في المسيح ومنه لنا، فهو الكرمة ونحن أغصان الكرمة. والحياة هي حياته المتجسِّدة التي لا تذوب فيها طبيعة البشر أو تتحول إلى ذات طبيعة الابن الوحيد. والقول بغير هذا هو هُراء الذين ادَّعوا أن الشركة في حياة أو طبيعة الثالوث هي تحوُّل الإنسان إلى خالق. ولكن اتحادنا بالمسيح هو "بلا انفصال وبلا تغيير وبلا تحول". والرب يعمل فينا دون أن ينقسم، ونحن لا نفقد إنسانيتنا. وما حصار عمل الابن في مغفرة الخطايا وحدها، إلَّا تجاهُل، ربما عن جهلٍ

---

(١) "فالإنسان فانٍ بطبيعته لأنه خُلق من العدم إلَّا أنه بسبب خلقته على صورة الله الكائن كان ممكنًا أن يقاوم قوة الفناء الطبيعي ويبقى في عدم فناء لو أنه أبقى الله في معرفته كما تقول الحكمة "حِفْظ الشرائع تُحقِّق عدم البَلَى"، وبوجوده في حالة عدم الفساد (الخلود) كان ممكنًا أن يعيش منذ ذلك الحين كالله كما يشير الكتاب المقدس إلى ذلك حينما يقول: "أنا قلت إنكم آلهة وبنو العليّ كلكم، لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون".

للقيامة – والخلود – وتجديد الكيان الإنساني من الموت إلى الحياة. وتنوُّع أسماء عطايا الثالوث لا يعني تعدد الثالوث إلى أكثر من ثلاثة، بل هو تنوُّع احتياجات البشر. الخلود هو الملكوت، والملكوت هو شركة في الحياة الإلهية إلى الأبد.

الفصل بين العاطي والعطية:

(١) يمنعنا تجسُّد ابن الله من الفصل بينه وبين العطايا الإلهية، أو اعتبار هذه العطايا مخلوقة، لأن عطية الحياة الأبدية هي عطية الابن: "أنا هو القيامة والحياة". لأن الابن المتجسد له حياة واحدة إلهية إنسانية بعد تجسده.

(٢) كذلك يمنعنا تجسُّد ابن الله من اعتبار عطايا الثالوث عطايا مخلوقة، لأنها وإن كانت قد أُعطيت في الزمان، إلَّا أن مصدرها واحدٌ هو الأقنوم الواحد الذي من الآب وبالروح القدس يعطي لنا شركةً في بنوته. ذلك، لأن انفصال اللاهوت عن الناسوت مستحيلٌ، لأن "من أخلى ذاته وأخذ صورة العبد" أعطى مجده لهذه الصورة الحقيرة: "مجِّدني أيها الآب بالمجد الذي كان لي عندك قبل خلق العالم". فالنعمة أو العطية هي من الحي، لأننا خُلِقنا من العدم وليس لنا وجودٌ سابقٌ على ولادتنا الجسدانية، ولكن الذي ليس هو من العدم بل من الآب، **نقل أصلنا الإنساني إلى أُقنومه الإلهي عندما تجسَّد**. وبذلك نقل حدود الطبيعة الجسدانية إلى الطبيعة الجديدة، **فصارت النعمة هي "الحدود" الجديدة التي من الله**؛ لأننا نولد من الله الآب، وننمو حسب قصد التدبير، ولأن آدم الثاني هو "الرب من السماء" الذي جاء بالحياة غالبة الموت، لذلك غَرَسَ الخلودَ في ناسوته عندما قَبِلَ الاتحاد به، وأباد الموت على الصليب، ونقل –بالقيامة– الناسوت إلى حياةٍ لا تقبل الموت، فصارت توزَّع علينا في كل قداس في السر المجيد.

(٣) وقد رَسَمَ الربُّ حدود الطبيعة الجديدة المولودة "من فوق" بختم البنوة بسبب وحدانية حياته مع حياة الآب. وشركته في ذات حياة الآب جعلت الذين يتَّحدون به بالروح القدس ينمون إلى حياةٍ حقيقية، لا الحياة المزيَّفة التي زيَّفتها الخطية، حياةٌ لا انفرادَ

فيها للإرادة الإنسانية، بل اتحاد الإرادة الإنسانية بالإرادة الإلهية، اتحادُ حياةٍ لا اتحاد فكر فقط، واتحاد كيان بكيان، كيان الإنسان بكيان الابن المتجسد.

الفصل الثاني

الاتحاد الأُقنومي ينبوع كل السرائر

(١) يجب أن نأخذ أيقونة الرأس والجسد باهتمامٍ كبير أكثر من مجردِ حشدِ ألفاظٍ لاعتبار أن المسيح هو رأس الجسد، أي جسده الذي أخذه من العذراء، وجسده الذي يكوّنه هو ذاته أي الكنيسة؛ ليسا جسدين أو ثلاثة كما كَتَبَ سابقًا مَن كَتَب، بل المسيح الواحد والجسد الواحد.

لقد صار الرأسُ ينقل إلينا ما هو في حياة الثالوث إلى جسده، فهو "يحل بالإيمان في قلوبنا"، ليس بشكلٍ رمزيٍّ أو لفظيٍّ كما يُشاع، بل هو ذاته الذي صار "حياةَ" هذا الجسد الواحد، لأن فيه "يحل كل ملء اللاهوت جسديًا، ونحن مملوئين فيه" (كو ٢: ٩). فقد جاء الكلمة متجسِّدًا لكي يحيا فينا ويرفع حدود الطبيعة المخلوقة – التي كانت العائق أمام الاتحاد بأُلوهية المخلِّص– عندما وحَّد أُلوهيته بالإنسانية التي أخذها من العذراء القديسة مريم، فنالت الإنسانيةُ **فيه** الحضور الدائم في الثالوث، دون أن يتوقف هذا على حرية الإنسان واختياره، بل على العطاء الإلهي الثابت الذي هو "بلا ندامة" حسب قول الرسول بولس. فقد أصبحت النعمة من هبات التدبير، وأصبحت ثابتة بسبب ثبات الابن الوحيد في وحدانية الجوهر وفي محبته للآب.

(٢) وعندما أكمل الربُّ التدبير ووضع الأساس، وصعد إلى السماء، نقل إلينا حياته الإلهية المتجسِّدة. ولذلك، فإن الافعال التي تقال عن حضور أو مجيء الرب مثل "ماران آثا"، **إنما هي عن الاستعلان وليس عن مجيء مَن هو غائبٌ**، لأنه هو الذي قال: "أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر" (متى ٢٨: ٢٠).

والاستعلان؛ ليس مجرد خبرٍ أو ألفاظٍ تقال، بل هو شخص أقنوم الله الكلمة الذي لا تنفصل كلماته عن أفعاله.

لأننا عندما نغطس في مياه المعمودية، فالذي يُعمِّدُنا هو ربُّ الحياة، وما يفعله الكاهن إنما هو خدمة السر لا إعطاء السر. لأن يسوع ربنا لم يُعطِ هذه الخدمة لكي ينفصل عنّا، بل وَهَبَ "خدمة كهنوته" لمن يدعوهم هو لخدمة الأسرار. فهو، أي يسوع هو الوسيط الوحيد الذي "يعمِّد"، و"يمسح" بالميرون، و"يعطي" الروح القدس، و"يقدِّم" ذاته في السر المجيد "طعام الحياة الأبدية"، لأن إنسانًا أيًّا كان لا يستطيع أن يعطي هذه السرائر، **أولًا** لأنه لا يملكها. **ثانيًا** لأنها ليست تحت سلطان بشري، فلا يستطيع أحدٌ أن يأتي إلى الآب إلَّا بالابن (يوحنا ١٤: ٦)، ولا يملك أحدٌ أن يقول إن يسوع ربٌّ إلَّا بالروح القدس (١كو ١٢: ٣). فوساطة المسيح ليست عملًا في يد آخر، بل هي عمل الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح.

(٣) هكذا يجب أن نفهم التدبير الإلهي، لأن ما يُستعلَن ليس أمرًا في يدِ آخر، ولا تفويضَ فيه لأحد، لأن الوحيد الذي يفتح لنا أحضان الآب لكي نستقر فيه ومعه هو "الكائن في حضنه الأبوي كل حين" (قسمة صوم الميلاد) لأنه حقًّا هو الذي أخبَرنا (راجع يو ١: ١٨)، ليس كخبرٍ يُقال، بل أخبرنا بالحقيقة، أي بالشركة (١يوحنا ١: ١-٣).

وعندما يقول الكاهن: "أُعمِّدك يا فلان ..."، فإن الغطسات الثلاث تؤكد أن الذي يعطي هو الثالوث. وعندما يقول: "أخذ خبزًا .. وشكر .. الخ"، فهو يؤكد أن الفاعل هو يسوع وأن هذا العمل هو عمله، فهو الذي يملك أن يقدِّم جسده ودمه، وهو وحده الذي له سلطان التقديم، لأن الرب يأخذ من عند الآب "خبز الله النازل من فوق من عند الآب" (يوحنا ٦: ٤٥)، ويعطينا.

وبذلُ الابنِ لذاته هو عملٌ دائمٌ استُعلِن علانيةً على الجلجثة، ويعطى للأحباء في السر المجيد، أي الاستعلان السرائري.

حقًّا، قدَّم الربُّ ذاته مرةً واحدةً، ولكن التجسُّد فعلٌ دائم، والمسحة فعلٌ دائم، وبذلُ الذات فعلٌ دائم بدون المسامير والصلب، لأن قوة البذل ظهرت في القيامة من بين الأموات. كلُّ هذا إنما يُوهَب لنا سرائريًا.

شركتنا في بنوة الابن:

(١) الابن له المجد هو ابن الله قبل وبعد تجسُّدِه. وبنوته للآب هي كيانه الإلهي الحقيقي الذي استُعلِن لكي يهب لنا بنوةً حقيقيةً، وهي عطيةٌ لم تكن موجودةً بالمرة في الكيان الإنساني، وهي ليست قوةً ذاتيةً تحت إرادتنا، بل تظل نعمةً، أي يظل الإنسان الذي ينال النعمة هو إنسانٌ لا يتساوى مع الابن، بل يُصبح له صورة رب المجد، كما ذكر رسول الرب: "نتغير إلى تلك الصورة عينها ... من مجد إلى مجد". والصورةُ دائمًا ما تحمل ملامحَ من الأصل، ولكنها ليست الأصل. لكننا عندما نراه، كما كتب يوحنا: "سنكون مثله"، غير أن المماثلة هنا لا تعني المساواة في الجوهر، بل هي صورة الابن الوحيد التي استُعلِنت في تجسُّدِه وقيامته. صورة الإنسانية التي "مُجِّدت" في يسوع.

لماذا يستحيل على الإنسان المؤلَّه بالنعمة أن يصبح إلهًا بالطبيعة؟

(١) تحوُّل المخلوق إلى خالق لنفسه أو لغيره مستحيل. ولذلك يُعَّدُ من قبيل العبث بالألفاظ ما ساد عندنا من أن حلول الروح القدس أو سُكناه في الإنسان يحوِّله إلى خالقٍ موجودٍ في كل مكان، لأن الإنسان وُجد بمَن أوجده، فهو لا يملك "وجوده"، وهو مقيَّدٌ بالطبيعة التي "خُلق" بها.

(٢) التحوُّل إلى أُلوهةٍ معادِلةٍ أو مساويةٍ لله تعني أن قائل هذه الكلمات لا يُدرك معنى كلمة "خالق"، لأن الكينونة الإلهية لم تنشأ ولم تُوهَب ولم تُعطَ بواسطة آخر. الله "واجب الوجود" كما يقال في لغتنا العربية، أو هو "الكائن" كما تذكر الأسفار المقدسة في الكتاب المقدس. هذا لا يمكن أن ينطبق على الإنسان.

(٣) المحبة الإلهية لا تعمل إلَّا من خلال الفوارق بين الله والخليقة، لأن بقاء كل مخلوق في دائرة وجوده هو الذي يجعله ينال النعمة، أي فيض الصلاح: "لأن الله صالح ولا يضن بالوجود على المخلوقات" (تجسد الكلمة ٣: ٣). أما المساواة بين أقانيم الثالوث، أي وحدة الجوهر، فهي خاصة بثلاثة متساوين في كل شيء، وشركتنا في المحبة الإلهية لا ترفعنا إلى هذه الدرجة من المساواة، لأن هذا يعني أن الله الثالوث لا يُحب الخليقة إلَّا إذا كانت مساوية أو معادلة له، وهذه "أنانية" تجعل المحبة الإلهية "محبة ذاتية" فقط، ليس فيها صلاحٌ أو عطاء.

(٤) المحبة الإلهية تعطي، لا لكي تمحو وتبيد، بل لكي تُجدِّد. وعندما تجدِّد، فهي تعيد الكائن إلى ما يجب أن يكون عليه، وتثبِّت وجوده بنعمةٍ أعظم، وهي نعمة الشركة.

(٥) وتحديد الإنسان يبدأ بالمعرفة، والمعرفة هي عطيةٌ واستعلانٌ يؤكِّد أن الإنسان يجب أن يستنير بالمعرفة، والاستنارة تعني أنه يأخذ ما لا وجود له في كيانه الإنساني، بل ما له أساسٌ في الخلق حسب صورة الله التي تشوَّهت فيه بالشر.

(٦) ومعرفتنا بالرب يسوع كأقنوم، نقلت المعرفة الإنسانية من مجال الفكر التجريدي إلى العلاقة الشخصية، ليس فقط بأُقنوم الابن، بل بأُقنوم الآب وأُقنوم الروح القدس.

كيف أسَّس التجسُّد شركتنا في الطبيعة الإلهية؟

(١) لقد أصاب العمى الروحي بعض الذين –عن جهلٍ– اعتنقوا الأوطاخية بسبب التحريض الدائم ضد الاعتراف بطبيعتين في المسيح الواحد. هؤلاء هم ضحايا التصوُّر غير المسيحي للخلاص، لأن الخلاص هو ارتقاءُ الإنسان من العبودية للطبيعة الجسدانية التي تعود إلى التراب إلى رتبة التبني. وبالتالي فإن ذوبان الطبيعة الإنسانية في بحر اللاهوت –حسب خيال أوطاخي المريض– ليس إلَّا "بترًا" للجسد وللإنسانية كلها،

في حين أن التجسُّد كاستعلانٍ إلهي جاء لكي يؤكد:

أولًا: نعمة الخلق نفسها، لأن الله لم يخلقنا لكي يذوب الجسد أو تختفي النفس الإنسانية، بل خلق الإنسان ليبقى إنسانًا. ولذلك جاء الكلمة وتجسَّد وصار بشرًا مثلنا مؤكِّدًا بذلك بقاء الإنسان إلى الأبد إنسانًا.

ثانيًا: لقد اكتمل التدبير بقيامة الجسد من القبر ودخول الإنسانية السماء **في يسوع** الحي الجالس عن يمين الآب. وصار الإنسان مدعوًا للجلوس عن يمين الآب في يسوع المسيح، لذلك أصبحت هذه العطية محور تسبيح الكنيسة: "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له". وتألُّه ناسوت الابن يعني أنه بلا فساد وغالبٌ للموت، ولذلك يُعطى لنا في الإفخارستيا. وعندما ننال "الجسد المحيي"، فهذا يعني أن انتقال أصلنا من العدم إلى حياةٍ خالدة، تمَّ في المسيح، ونُقِلَ إلينا في السرائر.

ولذلك، فإن الهجوم على الشركة في الطبيعة الإلهية هو هجومٌ على شركتنا في المسيح، وعودةٌ غير مباشرة إلى الأريوسية، لأن المسيح ليس إنسانًا فقط، بل إلهٌ متجسِّدٌ. والتجسُّد ليس هو اتحاد الرب بناسوتٍ خاصٍّ به هو فقط، بل هو اتحادٌ يُوهَب للإنسانية التي تقبل الانضمام إليه باتحادها بالمسيح في سِرِّ الانضمام الذي يُعطى في المعمودية (رو ٦: ١-٨).

تحوُّل ناسوت الرب يسوع

(١) تحوُّل ناسوت الرب يسوع إلى آدم الثاني أو "آدم الأخير" جاء إلى الإنسانية من الروح القدس، لأنه جاء كإنسانٍ وحُبِل به في أحشاء البتول. وفي الحبل البتولي تم تكوين آدم الثاني، الإنسان الجديد، الإنسان الكامل، الذي أخذ حياةً إنسانيةً كاملةً (جسدًا ونفسًا عاقلة) من الروح القدس ومن القديسة مريم. هكذا بدأ أكبر تحوُّل في الإنسانية بزرعِ حياةٍ إنسانيةٍ جديدةٍ، فلم يَعُد الاستعلان لفظيًّا أي بالكلام فقط، بل بالوجود والكينونة الجديدة التي دخلت التاريخ الإنساني القديم الذي رُبِطَ بالموت. وهكذا

تحول الناسوت بالاتحاد بعد أن مرَّ **أولًا** بمسحة الروح القدس في الأردن في معمودية الرب يسوع ذاته، **وثانيًا** بعد أن عَبَرَ بوابة الموت والقبر بالصلب وبالقيامة، لكي يؤلِّه، أي يصير عديم الفساد، حيًّا بالروح القدس: "المسيح تألم مرةً واحدة .. من أجل الأثمة لكي يقربنا إلى الله مماتًا في الجسد ولكن مُحيىً في الروح" (٢بط ٣: ١٨)، لأن روح يسوع، أي الروح القدس "هو الذي أقام يسوع من الأموات" (رو ٨: ١١)، وهو نفس الروح الذي سوف يقيم أجسادنا من الموت، لكي نرث مع المسيح حياةً أبديةً هي هبة الله الآب لنا في ابنه (رو ٨: ١٧).

(٢) وتحوُّل الناسوت إلى عدم فساد هو الذي يجعلنا نقرِّبُ ذبيحةً سمائيةً إلهيةً في كل قداس، لأن الابن قدَّمنا "قربانًا لأبيه"، وأعطانا شركة تقديم حياته التي يقدمها هو بنفسه (راجع قسمة للابن في عيد القيامة)[١].

الأقنوم هو الاستعلان الشخصي للمحبة:

(١) لا شك في أن الكلمات الإنسانية هي التي تكوِّن الوعي، وهي أداة العقل في الفهم والتواصل. لكن الكلمات الإلهية ليست مجرد كلمات تُقال أو تُكتب، رغم أنها تقال وتُكتب في الحياة اليومية، بل هي:

أولًا: تعبيرٌ عن علاقة.

ثانيًا: وأن هذه العلاقة تميَّزت بالشركة.

---

(١) "أيها المسيح إلهنا رئيس كهنة الخيرات العتيدة ملك الدهور، الغير المائت الأبدي، كلمة الله الذي على الكل. الذي أنعم علينا بهذا السر العظيم الذي هو جسده المقدس ودمه الكريم لغفران خطايانا. هذا هو الجسد الذي أخذه من سيدتنا وملكتنا كلنا القديسة مريم وجعلته واحدا مع لاهوته. هذا هو الذي نزل إلى الجحيم وأبطل عز الموت، وسبى سبيًا وأعطى الناس كرامات. رفع قديسيه إلى العُلى معه، أعطاهم قربانا لأبيه، بذوقه الموت عنّا خلّص الأحياء وأعطى النياح للذين ماتوا...".

ونحن لم ندرس بكفاية الأبعاد الحقيقية للشركة.

لقد جاءت كلمة "أقنوم" عبر صراعٍ فكريٍّ امتد من القرن الثالث إلى القرن الرابع والخامس في دفاع آباء الكنيسة عن حقيقة وكيانية المحبة الإلهية التي تحوَّلت في كل مدارس الهرطقات إلى كلماتٍ فقط، أبعدت العلاقة، وهدمت الشركة. ولكي نفهم هذا يكفي أن نقول مثلًا إن الغنوسية كانت مدرسة التعليم بثنائية الخير والشر في إلهٍ خيّرٍ وإلهٍ آخر شرير هو إله الشر الذي خلق الجسد، لكي يسجن الروح الإنسانية، لأن هذا التعليم يضرب **أول** أساس في العلاقة، وهو تجسُّد الله الكلمة **وثانيًا** يتحول الخلاص إلى إبادة للجسد الإنساني باعتباره وسيلة عقاب. ولذلك حشد القديس كيرلس عدة اعتراضات في شرح الإصحاح الأول لإنجيل يوحنا عن تناسخ الأرواح، وعلى اعتبار أن الوجود في الجسد هو عقوبة عن خطايا تمَّت في العالم الروحي.

(٢) ولذلك، فإن التأكيد على أُقنومية المحبة الإلهية، هو تأكيدٌ لا يخص الرب وحده، بل الآب والروح القدس أيضًا. وتعبير "شركة الروح القدس" لا يُقال من أجل البركة حسب المعنى السائد لكلمة بركة، بل هو قوة وزخم الإنجيل، إذ تسبق كلمة "شركة" عبارة محبة الله الآب، ونعمة ربنا يسوع المسيح وشركة الروح القدس الذي أُعطيَ لكي يُشرِكنا في هذه المحبة (رو ٥: ٥).

أقنومية الابن والآب والروح القدس، هي التي جعلت المحبة؛ أبدية، خاصة، ليست كلامًا، بل شركة حياة تعبِّر عنها الكلمات، دون أن تكون هذه الشركة قد تأسست بالكلمات، وإلَّا ما هو القصد والمعنى الواضح لِما نطق به الرب يسوع نفسه: "أما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه (إعلانًا مستقلًا) بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية" (يوحنا ١٦: ١٣). و"السمع" في الآرامية ليس سماع حديث، بل مشاهدةٌ ونطقٌ بما هو كائن. واستعادة الخلفية اللغوية الآرامية لإنجيل يوحنا بالذات حسب دراسة (*M. Black*) جعلت فهم الإنجيل أعمق، لأن ما رآه الروح القدس قال عنه الرب نفسه بعد ذلك: "ذاك يمجدني

لأنه يأخذ مما لي ويخبركم" (يوحنا ١١: ٢٤)، وختم الرب: "كل ما للآب هو لي. لذلك قلت إنه يأخذ (من الآب ومني)، أي من المصدر ومن الاستعلان ويخبركم (يشهد ويعلِن)".

(٣) لم تعد المحبة عواطف وشعور فقط، بل أيضًا شخصًا أو أقنومًا حيًّا، لا فكرةً فقط في عقل الإنسان، هي كينونةُ الله: "الله محبة". وعبارة رسول الرب: "مَن لا يحب لم يعرف الله" (١يوحنا ٤: ٨)، دالةٌ على أن المحبة هي حياة الثالوث نفسه الذي لا مثيل له في دنيا الإنسان. ونحن عندما نقف حيارى أمام الواحد في ثلاثة، فهذه حيرةُ مَن يفتِّش عن شبيهٍ للثالوث ولا يجد في العالم المنظور، سوى رموزًا ورثناها منذ العلامة ترتليان عن "قرص الشمس والحرارة وأشعة الشمس"، ثلاثة في واحد. أو "العاقل والمعقول والعقل" في شرحٍ متأخِّر. وما هذه إلَّا محاولاتٌ إنسانية جعلت الثالوث قضية كلامية تُقال وتُشرَح حسب لغتنا. لكن جاءت كلمة "أقنوم" لكي تؤكد أن الأقنوم هو "تعيينٌ" أو "تخصيصٌ" لمحبةٍ متبادَلةٍ بين الأقانيم، وصارت تُوهَب للإنسان. وقد أدركنا هذا من استعلان الآب عند الأردن: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"، لأن مسرة الآب هي استعلان هذه المحبة البنوية الكيانية التي هي استعلان محبة الآب في الابن وبالذات في حركة التدبير.

(٤) واستعلان الخلاص جاء من إرسال الآب للابن الوحيد، ثم انسكاب الروح القدس في يوم العنصرة. هكذا استُعلِنت المحبة الإلهية. حركةُ عطاءٍ وبذل، إذ نقل إلينا الابنُ المتجسد محبة الله الآب. وقد ظهرت المحبة كإرادةٍ وبذلٍ:

أولًا: في إخلاء الابن لذاته.

ثانيًا: في قبول الصَّلب والقيامة.

ثالثًا: في هبة الروح القدس.

هذه حركة الثالوث نحونا. ولذلك، كان استخدام كلمة "أقنوم" ضروريًّا حتى لا

تصبح المحبة مجرد شعور وعواطف.

(٥) وثمة حقيقة أكبر، وهي أن الحياة تسبق المعرفة، والحياة والرؤيا والسمع واللمس والكلمات هي أدوات المعرفة بكل تأكيد، لكن الحياة هي التي تملك هذه الأدوات. هكذا نقلت كلمة أقنوم معرفتنا إلى ما هو شخصي أو أقنومي أو كائن.

المحبة المستعلَنة في أقنوم الابن

(١) هي محبة شخصية للجنس البشري، وأعظم ألقاب المسيح هو لقب محب البشر.

(٢) وهي محبة نابعة من كيانٍ قَبِلَ حياةً غير حياته لكي تحوِّل الإنسان إلى ما ليس لديه، وهو الحياة الأبدية. أخذ الابنُ حياتنا الجسدانية وحوَّلها في ذاته إلى محبة حقيقية لكي يحيا الإنسان بعطية المحبة (رو ٥: ٥) حسب الصورة الإلهية. وهو ما تعبِّر عنه واحدة من أجمل عبارات صلاة القسمة في الخماسين، وهي عبارة: "وردَّ آدم وبنيه".

الفصل الثالث

الله محبة، ولذلك هو ثالوث

(١) كان القديس أوغسطينوس في كتاب "عن الثالوث"، ومن بعده تراثٌ امتد إلى ريتشارد الفيكتوريني ومدرسة *St. Victor* قد اتجه إلى تعليمٍ عن الآب المحب والابن المحبوب والروح القدس المحبة. وفي مرحلةٍ لاحقة جاءت أيقونة الفنان الروسي روبلييف عن الرجال الثلاثة الذين زاروا ابراهيم أب الآباء. وظل التعليم عن المحبة الثالوثية هامشيًا، إذ سيطرت عقيدة الفداء والكفارة والبحث في لاهوت السرائر على كل مساحة ممكنة في كتب اللاهوت المدرسي. واكتفى الدارسون بما كتبه القديس أوغسطينوس، وإن كان البعضُ قد رأوا أن المحبة المتبادلة بين الآب والابن، وهي الروح القدس، تؤكِّد انبثاق الروح القدس من الآب والابن.

(٢) ما يجب أن نؤكد عليه هو أنه لا يوجد في الثالوث ما هو غير أقنومي. لا توجد صفات في الله الثالوث غير أقنومية. والمحبة المتبادلة بين الآب والابن ليست صفةً ولا تعني بالمرة انبثاق الروح من الآب والابن. وقدَّم ريتشارد الفكتوريني كلمةً لاتينية لم تظهر من قبل وهي *Condilectus* (كتاب الثالوث ٣: ٢٠)، وهي تعني أن محبة اثنين كلٍّ للآخر تصبح محبةً مشترَكةً إذا قُدِّمت لثالث، حينئذٍ تصبح المحبة ثالوثية *Triadic* لا ثنائية.

يبدو هذا غريبًا عن المنطق الإنساني، لأن المحبة الثنائية *Dyadic* مغلقة على شركة الاثنين، ولكن بوجود ثالث تصبح محبة ثالوثية *Triadic* من الواحد *Monad* إلى اثنين *Dyad* إلى ثلاثة *Triad*.

ما يزعج العقل هنا هو الأرقام والترتيب؛ الأول ثم الثاني ثم الثالث. أمَّا الثالوث فهو استعلانُ أشخاصٍ لهم ذات الحياة أو ذات الجوهر الواحد الذي لا ينقسم، لأن الانقسام جاء مع الموت والخطية.

(٣) الانبثاق من الآب مثل ولادة الابن. هو حركة ذاتية في جوهر الله الآب (يوحنا ١٥: ٢٦). وعندما ينبثق الروح القدس فهو لا يتحرك خارج جوهر الله الآب، فليس في الله داخل وخارج، لأن الروح القدس يستقر (رغم ضعف الفعل يستقر) في الابن، معلِنًا محبة الآب للابن. وقبول الابن للروح القدس استُعلِن أيضًا في التدبير، لأن الروح مَسَحَ الابنَ "واستقر عليه" (يوحنا ١: ٣٣)، **لأن ما يحدث في التدبير يجد جذوره في الحياة الإلهية.**

(٤) المحب الله الآب، والمحبوب الابن، والمحبة الروح القدس[١] ومن لا يقف مشدوهًا أمام انكشاف سر الحياة الإلهية، مكتفيًّا بتسليم عقله إلى اعتراضات أو إلى سؤالٍ مصدره إنزال العزة الإلهية إلى مستوى الحياة الحسية المنظورة، أضاع الوقت والجهد.

ولكن كيف نبدأ؟

أولًا، بالعودة إلى ممارسة المحبة حتى على المستوى الإنساني، لأن للمحبة منطقًا غيرُ حسيٍّ، يظهر في العطاء والبذل، مع فارقٍ جوهري؛ ألا وهو أن بذل الثالوث لذاته لا يؤدي إلى الموت، بينما بذل الذات عندنا نحن البشر قد يؤدي إلى نهاية الحياة الجسدانية.

منطقُ المحبة، هو البداية، والبدء ليس بالذات بل بالآخر، وهو صعبٌ على البشر. الآب أرسل ابنه الوحيد، لم يُعلن الآب عن ذاته، ولا عن بدء التدبير باستعلان أُبوته منفردًا، بل في استعلان الابن، والابن الذي بذل ذاته أعطى الاستعلان للروح

([1]) The Victorine Texts in Translation, On Love By High Feiss, 2012.

القدس، والروح يُعلن الابن. واستعلان كل أقنوم بواسطة آخر هو استعلانٌ لمنطق المحبة الذي يُلزم مَن يُعلِن بإخلاء الذات. وحتى الروح القدس نفسه أخلى ذاته بقبوله السُّكنى والحلول في القلوب الإنسانية المحتاجة إلى تقديس، والتي تظل في حاجة إلى التقديس طالما هي في هذه الحياة.

لقد استلم الابنُ إنسانيته من الروح القدس عندما اتَّحد بها في بطن البتول. وهو يعطي لنا هذه الإنسانية الممجَّدة في سر الإفخارستيا. العطاءُ هو من الرب يسوع، وكان يمكن أن يُوهَب بدون الروح القدس، لكن الشركة في الحياة الإلهية جعلت الرسولي يكتب أكثر من مرة في الرسائل إلى سرابيون، لاسيما الرسالة الأولى عبارته القاطعة: "من الآب بالابن في الروح القدس"[١]. هكذا يُستَعلَن الله الثالوث، وإذا اشتركنا في هذا الاستعلان وكفَّ العقل عن الانشغال بالماضي وبالذات الخطية (وهي الموضوع المفضَّل على التدبير عند البعض)، عندئذٍ ينتقل الفكر من الذات حيث آليات التفكير في الذات والاهتمام المفرط بالذات الذي يطرح علينا أسئلة لا علاقة لها بالمحبة، ينتقل إلى منطق المحبة، أي الشركة.

(٥) ومنطق المحبة هو أيضًا شركة الآخر، لأن الآخر لا يهدد الوجود ولا يحدد الوجود، إلَّا عند أسرى الأنانية في شكلها البشع، وهو "النرجسية". والآخر هو من ذات الحياة، هو آخرٌ يحل في الآخر ويجد فرحه ومسرته في هذا الحلول: "أنا في الآب والآب فيَّ (أنا)"، هكذا نطق الرب يسوع: "ومن رآني فقد رأى الآب"، "أنا والآب واحد"، بل ما هو مدهش حقًا: "كما أن الآب له حياةٌ في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضًا أن يكون له حياةٌ في ذاته" (يوحنا ٥: ٢٦). وحتى الشهادة قال الرب عنها: "الذي يشهد لي هو

---

(١) راجع ق أثناسيوس الرسولي في رسائله إلى سرابيون ١: ٣٠ حيث يقول: "وهذا هو ما علَّم به الرسول أيضًا حينما كتب إلى الكورنثيين في الرسالة الثانية قائلًا: "نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم" (٢كو ١٣: ١٣). لأن هذه النعمة والهبة تعطى في الثالوث **من الآب بالابن في الروح القدس**، وكما أن النعمة المعطاة هي من الآب بالابن، هكذا فانه لا يكون لنا شركة في العطية إلَّا في الروح القدس. لأننا حينما نشترك فيه تكون لنا محبة الآب ونعمة وشركة الروح نفسه".

آخر" (يوحنا ٥: ٣٢). فالآخر هو استعلان التمايُز، بل والاختلاف، رغم ما يحيط بكلمة اختلاف من ضعف لغوي يجعلنا نتراجع عنها خوفًا من الفصل (مساهمة أستاذنا الأنبا غريغوريوس)

محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس (رو ٥: ٥)

(١) من ضمن عبارات الأب متى المسكين المعروفة: "تلامس مع الله"، وهي تعني لمسة الروح القدس لكي يخرج العقل من "معتقل المنطق الحسي" إلى "حرية مجد أولاد الله"، حرية المحبة التي وُلِدَ فيها كل نُسَّاك الكنيسة شرقًا وغربًا عبر كل العصور، عندنا من أنطونيوس الكبير، إلى إبرام الفيوم صديق الفقراء، إلى كيرلس السادس المعلِّم الكنسي[١].

منطق الحرية ينالُ شهادةً من الأسفار، ولكنه الرؤيا القلبية الروحية التي قد يُطلِق بدايتها نصٌّ من الكتاب المقدس، ولكنها في النهاية مثل النار، تبدأ في بعض الأحيان من مستصغر الشرر، ثم تصبح لهيبًا مستعرًا.

نحن لا نسأل الحديد كيف ولماذا تأخذ طبيعة النار عندما توضع في النار. سؤالٌ ساذج، ولكن نار الروح القدس فينا تجعلنا نعبر بوابة الموت الذي يجبر الإنسان على البحث عن سبب، والأسباب التي نعثر عليها قد تكون جيدة وقد تكون معقولة، ولكن ما هي أسباب الحرية؟ أو ما هو السبب في وجود الحرية عندنا؟ والجواب هو أن الحرية هي أرض المحبة، فلا محبة بدون حرية.

يفتِّشُ العبيدُ عن فكرةٍ، وقد يجدون فكرةً، ولكن يمضي زمان ننسى فيه ما لدينا من أفكار وتبقى المحبة.

---

(١) عندما نشرتُ خبرتي معه في التسليم الكنسي والإرشاد الروحي، لم يكن أحد من الذين هاجموا ما دوَّنته من تسليم وإرشاد، قد عاش ما عشته معه على مدى ثلاث سنوات، ربما كان هؤلاء لا زالوا في المدارس الثانوية وبعضهم لم يكن قد وُلد أو كان لازال يحبو كطفل غرير.

آهات الروح القدس (رو ٨: ٢٦) أو "أنَّاته" التي لا يُنطق بها هي شفاعة الروح في كل مسيحي يبطئ في الإدراك، وهنا يئن الروح تحت وطأة وثقل المنطق الإنساني المستعبَد لأنه يريد أن يكشف لنا عن زخم المحبة الإلهية الذي عبَّر عنه رسول الرب في (كو ١٣: ١-٨) حيث لا شريعة ولا كلمات، بل شريعة الحياة الذي أعتق الإنسان من الموت (رو ٨: ٢)[١]. ومنطق الموت لا يقبل النعمة، ويريد أن يقيِّد المحبة. أما يسوع محب

---

(١) عن أنين وشفاعة الروح القدس يقول العلامة أوريجينوس: "أحيانًا لا يعرف الإنسان المريض كيف يسأل الطبيب، فلا يطلب الدواء الذي يعطي له الشفاء، بل قد يسأل شيئًا يزيد من أوجاع المرض. هكذا نحن، عندما نذوق مرارة الحياة وضعفها قد نسأل الله ونطلب أشياءً غير نافعة، لكن الروح يعين حياتنا الجسدانية، وعندما يرى الروح أن أرواحنا تصارع مع أهواء الجسد التي تثقلنا، عند ذلك يمد الروح القدس يده لكي يعين ضعفنا" (شرح رسالة رومية ٤: ١٣٦).

ويقول ذهبي الفم: "الروح معنا دائمًا لكي يعين ضعفنا، ولكن لأننا نجهل ما هو نافع لنا نطلب أحيانًا ما هو غير نافع لنا، ولكن عطية الصلاة قد ينالها شخص معين في الكنيسة اختاره الله لكي يطلب ما هو نافع. وعندما يستخدم الرسول كلمة "الروح"، فهو الاسم الذي يعطيه الرسول لهذه العطية التي توهَب للنفس التي تُعطى هذه النعمة لكي تتشفع عن (الكنيسة) لدى الله. ومَن يُحسب أهلًا لهذه النعمة عليه الانتباه الشديد؛ لأنه هو نفسه سيدخل الأنين الروحي عندما يقف أمام الله سائلًا ما هو نافع للكل. في أيامنا الشماس هو رمزٌ لهذه الخدمة؛ لأنه يقدم صلاةً عن الشعب" (عظات على رومية ١٤: ٩).

ويقول أوغسطينوس: "من الواضح أن الرسول يتكلم عن الروح القدس؛ لأننا نحن لا نعرف كيف نصلي لسببين. السبب الأول هو أننا لا نعرف بشكل واضح ما هو المستقبل الذي نرجوه وما هي الأحداث التي سوف تحدث لنا في المستقبل. والسبب الثاني هو ما أكثر الأشياء التي نراها مناسبة وجيدة في هذه الحياة وأخرى نراها عكس ذلك، وعلى سبيل المثال عندما تحدث ضائقة لأحد خدام الله لكي يتعلم منها شيئًا، فإن هذه الضائقة قد تبدو للآخرين كما لو كانت بلا فائدة، بل باطلة، لأننا لا نعرف طرق الله. ولكن الله يساعدنا في الضيقات، بل أن الأيام التي نرى فيها عذوبة الحياة قد تصبح هي ذاتها مصيدةً لنا؛ لأنها تصطاد النفس بالمسرات وبمحبة الحياة أكثر من الله ... هنا يئن الروح ويجعلنا نحن أنفسنا نئن مشتاقين لمحبة الروح نفسه للزمان الآتي" (شرح أوغسطينوس لرومية ناقص نشره مركز دراسات الكتاب والآباء في الولايات المتحدة، فقرة ٥٤: ٢٧).

ويشرح ديونيسيوس بابا الإسكندرية (٢٤٨م-٢٦٥م) وتلميذ العلامة أوريجينوس في رسالته أنَّات الروح القدس الذي يخلي ذاته لكي يسكن فينا قائلًا: "ما هو معنى كلمات الرسول: "الروح نفسه يعين ضعفنا، لأننا عندما لا نعرف كيف نصلي أو ماذا نصلي، الروح يشفع فينا بأنَّاتٍ لا يُنطق بها" (رو ٨: ٢٦ – ٢٧) لا يقبل الروح الكلي القداسة أن يسكن حيث توجد خطية، ولكنه هو نفسه الآن يحيا إلى الأبد في قلوبنا البشرية الخاطئة. ما أعمق معاني كلمات الرسول بولس: "أنَّات لا ينطق بها". لقد قال الرسول نفسه في موضع معين: "لا تطفئوا الروح" (١ تس ٥: ١٩)، ونحن كثيرًا ما نطفئ الروح عندما يصبح قلبنا باردًا، وهو ما حذَّرنا منه الرب يسوع المسيح، لأن القلب يبرد بالإثم (متى ٢٤: ١٢). المحبة هي رباط، ولكن ذلك الرباط ليس للعبودية، بل هو رباط الروح الذي يطهِّرنا من الأنانية. فالروح الذي هو نار المحبة الالهية نحن لا نهتم به، وهو يصرخ فينا، نحن نسكب عليه مياه الخطية الباردة لكي نطفئ اللهب،

البشر، فقد مات من أجل الأثمة وهو البار لكي يقرّبنا إلى الله الآب (١بط ٣: ١٨).

استعلان الثالوث في الليتورجية

(١) في صلاة الاستعداد: "أيها الرب العارف قلب كل أحد، المستريح في قديسيه ... أنت يا سيدي تعلم أني غير مستحق ولا مستعد ولا مستوجب لهذه الخدمة المقدسة التي لك ... أرسل لي قوة من العلاء لكي ابتدئ وأُهيئ وأكمل كما يرضيك خدمتك المقدسة كمسرة إرادتك رائحة بخور ... اشترك في العمل معنا".

(٢) وفي صلاة التقدمة: "اظهر وجهك على هذا الخبز وعلى هذه الكأس هذين اللذين وضعناهما على هذه المائدة الكهنوتية التي لك .."، فالقربان هو قربان الرب.

وتأتي هذه الصلاة قبل استدعاء الروح القدس: "فيما نحن أيضًا نصنع ذكر آلامه المقدسة ... وظهوره الثاني ... **نقرب لك قرابينك من الذي لك**". فالقربان خاصٌّ بيسوع لأنه جسده، وهو تقدمة منه. وباقي الكلمات تعني أن تقديمه دائمٌ ومن أجل الاحتياجات الدائمة وفي كل مناسبة .. لذلك يأتي التقديس باستدعاء الروح القدس.

(٣) وخُدَّام السرائر يقدّمون أيضًا، لأن التقدمة شركة: "أعطيتني إصعاد جسدك بخبزٍ وخمرٍ"، أي أن تقديم القربان صعيدة أو تقدمة. ولكن يجب ألَّا ننسى هذا في خضم

وهو يعاني ويتألم من طردنا إياه، إلَّا أنه لا يتركنا إلَّا في يوم الدينونة. يشتاق الروح أن يعطي لنا كل الصلاح، إلَّا أنه يرى أن قلوبنا باردةٌ. لقد أخلى الروح ذاته وتخلى عن قداسته لكي يغسل قذارتنا. هل رأى أحدٌ منَّا ملكًا عظيمًا يخلع تاج ملكه وملابسه الملوكية لكي ينحني لكي يغسل قذارة شحاذ مغطى بالقذارة، ثم يضمِّد جراحه، ويُلبسه ملابس ملوكية، ثم يئن مشتاقًا لأن يعطي له التاج والملابس الملوكية. حقًا يتواضع الروح أكثر من تواضع الابن عندما تجسد؛ لأن الابن أخذ نفسًا وجسدًا من مريم وجعلهما مقدَّسين بالاتحاد بالطبيعة الإلهية، ولكن عندما يعمل فينا الروح القدس، نحن الذين ليس لنا طبيعة مقدسة لكي يعمل فيها، بل مدنسة بالخطية، فهو يخلي ذاته". راجع أيضًا مقالنا الدالة والشفاعة وردٌّ موجز على الذين غاب عنهم الوعي الكنسي، مقال منشور على موقع الدراسات القبطية في ١٦ سبتمبر ٢٠١١.

مشاغلنا وأفكارنا أننا أمام رئيس الكهنة يسوع المسيح رأس الكنيسة الذي يقدِّم حياته لنا.

(٤) الروح القدس حسب الصلوات نفسها، وليس من اختراع العقل: "أرسل لي قوة من العلاء" لأن تقديم الذبيحة حسب موهبة kata tdwrea الروح القدس الذي يطلبه الخادم: "أرسل لنا نعمة روحك القدوس ...".

(٥) وفي صلاة الخضوع للآب: "نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر لكي إذ طهَّرتنا كلنا، تؤلِّفنا بك من جهة تناولنا من أسرارك الإلهية لكي نكون مملوئين من روحك القدوس وثابتين في إيمانك المستقيم".

تؤلِّفنا بك، أي توحِّدنا بالمسيح والكلمة القبطية ϩotpen"""""""" n~tek `erok تعني الهارموني، ولكن بعدها يجيء التعبير الذي أفاض علماء العهد الجديد في شرحه: "ايمانك المستقيم" وهو ما ورد في غلاطية (٣: ٩) بإيمان المسيح.

وإيمان المسيح هو ما آمن به الرب كآدم الثاني: أُبوة الآب، ومحبة الله للبشرية، ونهاية وساطة شريعة موسى، واستعلان ملكوت الله، والقيامة من الأموات.

التدبير يُمارَس في الليتورجية

(١) يُمارَس التدبير بتقديم قربان يسوع، وهو جسده ودمه، جسده المملوء بالروح القدس (لوقا ٤: ١)، وهو نفس الروح الذي سكبه على التلاميذ في يوم العنصرة (أعمال ٢: ٣٣).

كيف يمارَس التدبير؟

أولًا: باستدعاء الروح القدس في بداية الخدمة.

ثانيًا: بطلب الرب نفسه أن يكمِّل الخدمة التي نشترك فيها، لأن "المائدة الكهنوتية" هي له، وهو -بشكل ظاهر- في القداس الغريغوري الذي "أعطى في ذلك الزمان"، وهو الذي يعطي لنا ما أعطاه للتلاميذ القديسين، وهذا هو المعنى الصحيح للذكرى. **فهي ليست استعادة لما حدث، بل استعادة ما حدث للشركة فيه**. هنا يدخل الثالوث في صميم العلاقة الجديدة، علاقة الآب بنا الذي أرسل ابنه الوحيد، والابن الذي جمع الكنيسة: "سلامًا وبنيانًا لكنيسة الله"، لأن هذا هو مجد وكرامة الثالوث القدوس الذي يُعلَن في بداية الخدمة.

الفصل الرابع

الجوهر الواحد وثالوث الأقانيم
"موجز كتاب حوار حول الثالوث للقديس كيرلس الكبير"

يؤكد القديس كيرلس الكبير في كتابه "حوار حول الثالوث"[١] أن كلمة "هوموأوسيوس – مساوي للآب في الجوهر" تعني "أن الابن وُلِدَ من نفس طبيعة الله الآب" (١: ص ١٢).

وما أكده القديس كيرلس الكبير هنا هو أُلوهية الابن ربنا يسوع كأساس لأي شرح أو تعليم عن الثالوث، لأن أُلوهية الرب يسوع تؤكد أن الخلاص عملٌ إلهيٌّ، وتدبير الآب في إرسال الابن الوحيد، وفي انسكاب الروح القدس. لهذا السبب شرح أن تعبير "الواحد مع الآب في الجوهر" (١: ص ٩) يعني.

أ– أنه من ذات طبيعة الآب (١: ص ١٢). وتعبير الـ "هوموأوسيوس" له جذور في الأسفار الموحى بها، وهكذا فالاشتقاقات التي تخرج من الكلمة ليست بلا أصل، ولكن جذورها كامنة منذ البدء (١: ص ١٤). وفورًا ينتقل القديس كيرلس إلى المشابهة بين الابن الوحيد والمؤمنين. فقد أوصانا الرب أن نكون رحماء مثل الآب السماوي (لو

---

(١) القديس كيرلس الكبير، حوار حول الثالوث، الحوارات السبع في مجلد واحد، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة، سلسلة نصوص آبائية رقم ١٨٨، الطبعة الأولى، ٢٠١٤. وفي استشهاداتنا بنصوص القديس كيرلس، سوف نشير إلى رقم الحوار، ورقم الصفحة الوارد بها الاستشهاد في هذه الطبعة.

٦: ٣٦)، وهنا يؤكد القديس كيرلس أن الممارسة المسيحية تجعلنا ننال هذه الصفة، لأن الصفة (الرحمة) ليست طبيعة ذاتية في المؤمنين، بل صفة مكتسبة. **هذا فرقٌ هائل بين الابن والمؤمنين.**

ب– نحن نحيا لكي "تُطبع فينا الصفة الإلهية" (١: ص ١٥)، وبالتالي تجعلنا نعيش بشكلٍ مختلف. ولكن هذا لا ينطبق على الابن له المجد، ونحن "لن نكون مشابهين لله في الجوهر" (١: ص ١٥)، فما هو الفرق الأساسي بين الله وصورة الله في الإنسان؟ نحن لنا طبيعة مركَّبة (جسد ونفس)، كما أننا خُلِقنا من التراب، والأهم هو تعرُّض النفس الإنسانية للتقلب من الصلاح إلى الطلاح، ولكن الله صالحٌ إلى الأبد لا يتحول.

جـ– "البشر الذين جاءوا من العدم لا يمكن أن يتشابهوا مع الله حسب الطبيعة"، بل "التشابه هو في نوع الحياة الجديدة ... ولن نكون واحدًا مع الله في الجوهر (١: ص ١٥-١٦).

د– الابن بلا تغيير، حتى عندما أخلى ذاته وتجسَّد. وما كُتِبَ عن تدبير التجسُّد يجب أن يُفهم على أنه خاصٌّ بأيام جسده (عب ٥: ٧-٨).

هـ– التجسُّد لم يكون حلولًا في جسد لأن هذا خاصٌّ بالقديسين "الذين يسكن فيهم الكلمة بالروح القدس" (١: ص ٢١)، لأن الابن صار الوسيط بين الآب والبشر، وهو لذلك يملك أن يعطي البشر الاتحادَ به، وهو كوسيطٍ، يمنحنا هذه العلاقة التي لا تستوعب مجد الله "لأن طبيعة الإنسان لا تحتمل أن تستوعب مجد الله" (١: ص ٢٢).

المسيح هدم كل ما يفصلنا عن الله:

وحَّد المسيحُ في كيانه الإلهي المتجسد "ما هو فوق وما هو أسفل". هذا هو أساس المصالحة، فكلُّ حائطٍ قديم يفصلنا عن الله قد هُدم" (١: ص ٢٧). وهذه

المصالحة جعلت الابن المتجسِّد يقدِّمنا في ذاته لله الآب (١: ص ٢٨)، فهو "حاضرٌ في وسطنا" (١: ص ٢٩). هذا العمل لا يمكن أن يقوم به مخلوق، ولكن لأن الرب صار كواحدٍ منّا جعل البَشَرَ شركاء الطبيعة الإلهية لأن الابن له اتحادٌ حقيقيٌّ وطبيعيٌّ مع الآب (١: ص ٣٠) هو اتحادُ طبيعةٍ، وليس اتحادَ اختيارٍ إراديٍّ (حسب ادعاء الأريوسية) (١: ص ٣٠). لقد وحَّدنا نحن البشر، وكلٌّ منّا له أُقنومه الإنساني الخاص به (١: ص ٣١)، ولكن تعدُّد أقانيم البشر[١] يعني أيضًا اتحاد كل البشر في "الجوهر الإنساني الواحد" (١: ص ٣١)، ولكن وحدة الطبيعة والإرادة هي ما نكتشف، لأن كلَّ واحدٍ منّا له "أُقنومه الخاص"، و"العضو" في جسد المسيح هو الاسم المقابل لكلمة أقنوم (١: ص ٣١)، لأن بطرس له أُقنومه وكذلك يوحنا، وعندما نصبح أعضاء في جسد المسيح نصير "مختومين في الوحدة بالروح القدس، ولأن المسيح غير منقسم فنحن واحدٌ فيه" (١: ص ٣٢)، لكن وحدتنا ليست مثل وحدة جوهر الثالوث لأن جوهر الثالوث يحتوي كل الصفات الجوهرية (الإلهية) (١: ص ٣٢).

الجوهر والأقنوم:

أ– الجوهر هو حياة مشتركة للثالوث.

ب– الأقنوم هو ما هو خاصٌّ في هذا الجوهر.

هذا التمييز يمنعنا من الخلط بين ما هو مشترَكٌ وعام في الحياة الإلهية، وما هو خاصٌّ بعمل كل أقنوم (١: ص ٣٣).

إن كان الابن مغتربًا عن جوهر الآب، أي من جوهر آخر أو من طبيعة أخرى، فهذا يعني أنه لا يملك أن يكون الوسيط، لأنه إن كان مخلوقًا مثلنا (أي ليس من طبيعة

(١) كان أحد اتهامات الأنبا بيشوي لي أنني أقول إن البشر أقانيم!!!!!

الآب) يصبح قابلًا للتغيير، وهو ما يجعل خلاص البشر مستحيلًا (١: ص ٣٦)، وهو ما يجعلنا نفقد رؤية الآب في الابن.

لماذا هو ابنٌ؟

الابن له المجد ليس ابنًا بالتبني مثل البشر، بل لأنه "مولودٌ"، وهو تعبيرٌ يؤكد أنه واحدٌ مع الآب، من ذات طبيعة الآب، ليس بالتناسل مثل البشر، ولكن ما هو خاص بالآب هو الأبوة، وما هو خاص بالابن هو البنوة، وبالتالي نحفظ خصوصية كل أقنوم ووحدانية الجوهر.

الحِيَل اللفظية للأريوسيين:

ما أشبه اليوم بالأمس البعيد، لأن الهراطقة "تدربوا على المبارزات الكلامية التي تغذيها الحِيَل والتشبيهات الخادعة والالتواءات العقلية التي لها صياغات جميلة، وهذه كلها تؤثر بشكل قوي على (إدراك) الذين اختاروا أن يحيوا في بساطة" (٢: ص ٤٢).

الخطاب عن الطبيعة الإلهية هو خطابٌ عن الثالوث (٢: ص ٤٧)، فالآب أزليًّا هو الآب، والابن يساوي الآب في كل شيء ما عدا الأبوة "التي لا تُناسِب إلَّا الله الآب وحده" (٢: ص ٤٨). وماذا عن الروح القدس؟ هو منبثق من الآب من طبيعة الآب بالابن (٢: ص ٤٨).

المصدر الواحد هو الآب، وانبثاق الروح القدس من الآب بالابن لا يعني أن الابن هو مصدر الروح، بل يؤكد الأبوة الواحدة لأقنوم الله الآب.

كان القديس كيرلس قد تبحَّر في دراسة الفلسفة اليونانية، وبالذات فلسفة أرسطو. فالله لا يوصف سلبيًا بأنه "غير مولود"، لأن أي صفة سلبية تنفي ما هو خطأ، ولكنها لا تؤكد ما هو كائن. وهكذا يَسخَر القديس كيرلس من تعبير "غير المولود" الذي

كان شائعًا في الأريوسية، وهو تعبيرٌ "ماكرٌ وأحمق" (٢: ص ٥٦)، ولكنه كان يُوظَّف لفصل الآب "غير المولود" عن الابن "المولود". وما أكثر الكائنات التي وُجِدَت دون ولادة، كالشمس والقمر والنجوم والسموات. كان تصنيف الأريوسية "غير مولود"، و"مولود" بمثابة حماقة، ولكنه كان يرمي إلى فصل جوهر الآب عن الابن، لكي يستقر في الوجدان وجود "جوهرين" (٢: ص ٥٧).

الابن الوحيد:

هو في "حضن الآب" (يوحنا ١: ١٨)، وعندما يدعو الابن له المجد الله "أبًا"، فهو يساوي ذاته بالآب (٢: ص ٦٥). ونحن أولاد الله، ولكننا لم نُولَد من جوهر الله، فالابن وحده هو الذي وُلِد من جوهر الآب، أما نحن "فقد نلنا نعمة التشبُّه بالابن في الولادة من الله". إذ نلنا رحمته نعمةً جعلتنا أبناء الله، إذ حصلنا على كرامةٍ ليست من طبيعتنا، بل أُضيفت إلينا. بهذه (النعمة) صرنا أبناءً بالتبني مشابهين الابن الحقيقي، ودُعينا لمجد ذلك الذي هو ابنٌ بالطبيعة. ولقد كان من المستحيل أن يوجد أبناء بالتبني لو لم يكن الابن الوحيد بالطبيعة كائنًا من قبل" (٢: ص ٦٧-٦٨).

الابن الأزلي هو سبب نوالنا نعمة التبني لأننا "صورةٌ للأصل والمصدر" (٢: ص ٦٨). وبه نلنا المجد الإلهي الذي انسكب على طبيعة المخلوقات (٢: ص ٦٨).

أبناء بالنعمة، لا أبناء من ذات جوهر الآب:

يبدو هذا التمييز دقيقًا، فهو ليس لفظيًا فقط، بل يشير إلى حقيقة هامة، وهي أن ما هو في الطبيعة ويميّزها ليس مثل ما يُضاف إلى طبيعةٍ أخرى لا تملك في طبعها البنوة، بينما البنوة هي التي تميّز طبيعة الابن. علاقة الأصل، أي الابن بالصورة، أي الإنسان هي علاقة هبة نعمة لمن لا يملك. ومَن لا يملك في طبعه أن يكون ابنًا مثل الابن الوحيد، لا يمكن له أن يتساوى مع الابن الوحيد. واختلاف الطبائع "لا يعني

وجود تناقض بين هذه الطبائع، فطبيعة الملاك ليست مناقضة لطبيعة الانسان" (٢: ص ٧٠).

أما طبيعة الله، فهي طبيعة بسيطة غير مركَّبة، وهو ما يجعل الله مختلفًا تمامًا عن الطبائع المخلوقة.

لو كان القديس كيرلس معنا في السنوات الماضية، وسمع الحماقة الأريوسية القائلة بأن الشركة في الطبيعة الإلهية تجعل البشرَ آلهةً مثل الله، ويصبح الإنسان بلا خطية، وقادرًا على كل شيء، وكائنًا في كل مكان، لضحك القديس كيرلس كثيرًا.

هذا هو أُسلوب الأريوسية في ضرب التجسُّد، وهو اتحاد اللاهوت بالناسوت، وبقاء ناسوت الرب ناسوتًا حقيقيًّا رغم حصوله على خصائص اللاهوت؛ مثل عدم الموت وعدم الفساد واشتراكه في المجد الإلهي وجلوسه عن يمين الآب، "فالله لا يخضع للضرورات التي يخضع لها البشر، ومنها التجزئة والولادة الزمانية" (٢: ص ٧٤)، لأن هذا يفرض على الله قيودًا هي "التقسيم والتمزق، وحتمية الولادة الزمانية" (٢: ص ٧٥).

العلة والمعلول:

حسب أرسطو تسبق العلةُ المعلول. ولكن هذه النظرية ليست حقيقة مطلقة يخضع الله لها. كان ادعاء الأريوسية بأن الآب هو علة وجود الابن، ولذلك يجب أن يسبقه في الوجود. وقد ردَّ القديس كيرلس بأن ما ينطبق على الأجساد وقوانين الأجساد هو الزمان الذي تسبق فيه العلةُ؛ أي الأب، المعلول؛ أي المولود الابن. ولكن هذه القاعدة لا يمكن أن تطبَّق على الله، لأن طبيعة الأُلوهة ليست جسدانية، "فالذي يلده الله بحسب طبعه الذي بلا بداية أو نهاية، أي غير جسدانية، وبالتالي يملك الابن في ذاته ذات طبيعة الآب". وقدَّم القديس كيرلس مثالًا على ذلك؛ وهو أن الفكر الإنساني هو ثمرة وإنتاج الذهن، والذهن لا يكون أبدًا بدون كلمات، وحينما يلد كلامًا، فإن الكلام يحمل طبيعة الذهن الذي ولده" (٢: ص ٧٩) والكلمة دائمًا في الذهن (٢: ص ٨٠)،

وعلى هذا القياس يصبح من الضروري أن لا نقبل بشكل مطلق أسبقية العلة على المعلول (٢: ص ٨٠)، لأن الابن كائنٌ أزلي في الآب الأزلي (٢: ص ٨٣). وإذا كان الوحي (الأسفار) تدعو الابن إرادة ومشورة الآب (مز ٧٢: ٢٣س)، فالإرادة والمسرة ليست صفة أو قدرة تضاف إلى الله. وهو ما يجعل تدبير الخلاص مؤسَّسًا على أُلوهية الابن وأزليته، "لأننا بالمسيح نسير نحو إرادة الآب، وقد تحولنا فيه إلى جمالٍ يفوق جمال العالم" (٢: ص ٨٤).

الإمكانية والفعل أو العمل:

كان خبثُ الأريوسيين واضحًا في استغلال الفكر واللفظ لكي يتم هدم أُلوهية الابن، فالله حسب الأريوسية هو آب بالإمكانية، ولكن من ناحية الفعل، أي الولادة، فهو مختلفٌ تمامًا. هو آب، ولكن هذه مجرد إمكانية أن يكون آبًا، أما ولادة الابن، أي الفعل، فهو ما يحدث بعد ذلك.

خداع الأريوسية ظاهرٌ في مسألتين:

الأولى: هي تطبيق قواعد الفكر الشائعة في الفلسفة اليونانية في زمان الآباء على الثالوث الذي يعلو على كل ما يمكن أن يصل إليه العقل من آليات الفكر.

الثانية: تحديد طبيعة الثالوث وعمله بواسطة آليات حقيقية يمكن أن تُستَخدم لفحص ما هو مخلوق ولا يمكن أن تُستَخدم بالنسبة للخالق، ليس فقط بسبب الاختلاف الشاسع بين الخالق والمخلوق، بل أيضًا لأن هذا يفرض على الثالوث أن يعمل حسب تقدير البشر وتصوُّر العقل الإنساني، وهو نوعٌ غيرُ مرئيٍّ لوثنيةٍ جديدة.

الإمكانية والفعل تختلف بالنسبة للمخلوق عن الخالق، ورغم ذلك يسير القديس كيرلس الكبير الميل الثاني مع الأريوسيين لكي يردهم إلى الصواب، لذلك كتب: "الإنسان كمثال، بطبيعته يتوالد ويملك هذه الإمكانية منذ أن يوجد، ولكن عندما ينمو

وينضج تصبح هذه الإمكانية فعلًا، فالإنسان لا يملك الحكمة بدون ممارسة، ولكن الحكمة توجد في جوهره، وهي مقدرة كامنة قادرة على اختيار أمر دون أمر آخر فيما يمارسه من علوم وفنون تُناسب الإنسان" (٢: ص ٨٩). واتخذ الإنسان كمثال قريب من الإدراك، لذلك يسأل القديس كيرلس السؤال الحقيقي للرد على سفسطة الأريوسيين: هل يتحول أو يتغير الآب من أُبوته كآب كما يتغير وينمو الإنسان من الإمكانية إلى الفعل؟ (المرجع السابق ص ٨٩). الموضوع الحاسم هو كينونة الله قبل وجود الخليقة، والآب كائنٌ قبل خلق العالم كله كآب، لأن أُبوته هي في كينونة الابن، وهو أعلن عن ولادة الابن الأزلي، وهو ما يحتِّم علينا أن نرى الفرق بين الخالق والمخلوق، لأن ما هو في المخلوق من إمكانية لا تظهر إلَّا في نضوج المخلوق، ولكنها تظل في جوهر المخلوق، وتحتاج إلى الزمان لكي تظهر. إلَّا أن هذا المثال رغم أنه يؤكد وجود إمكانية في الجوهر، ولكن الزمان هو مجال استعلان هذه الإمكانية بالفعل أو الممارسة، ولذلك كتب القديس كيرلس: "تحوُّل الإمكانية إلى فعل هو حركة تتم في الزمان، والزمان هو الذي يفصل بين الطبيعة والفعل" (٢: ص ٩١). ولكن مثال الشمس يؤكد لنا عدم انفصال أي صفة من الصفات الذاتية للشمس عن الشمس وأن النور والحرارة في الشمس لا يمكن فصلهما (٢: ص ٩١). والمثال الذي نختاره يجب أن نحتاط فيه حتى لا يطبَّق بشكل عشوائي على الخالق.

مثال العقل والكلمة الانسانية:

في الحوار الثالث يؤكد القديس كيرلس أن الإفراط في الخيال يؤدي إلى طياشة الفكر الذي يتصور "أن الابن المولود من الله مثل الكلمة من العقل، ليس هذا هو الله الحقيقي حسب **طبعه الإلهي** ... الأفضل أن نتعلم أنه توجد ولادة حسب الطبيعة، وهي بكل يقين علاقة الوالد بالمولود. وأن هذه العلاقة ليست نسبية أو علاقة غير حقيقية (مجرد فكرة)، بل هي علاقة طبيعية، لأن المولود بالحقيقة يأتي من ذات جوهر الذي ولده" (٣: ص ٩٤). الآب إلهٌ حقيقي والابن من ذات جوهر الآب.

الممارسة الكنسية لسر المعمودية:

التعميد باسم الثالوث الآب والابن والروح القدس يؤكِّد لنا وحدة جوهر الثالوث: "أُلوهية واحدة ممجَّدة في الثالوث القدوس" (٣: ص ٩٩). الوحدة لإله واحد هي "الجوهر الواحد"، فالابن هو "رسم جوهر الآب" (عب ١: ٣) والجوهر الواحد يمنع الفكر من أن ينسب للثالوث ازدواجية كينونة، لأن طبيعة الأُلوهة بسيطة وغير مركبة (٣: ص ١٠١)، والكينونة الإلهية لا تقبل الانقسام، وإذا كان الله هو "الكل في الكل" (١كو ١٥: ٢٨)، فهذا لا ينطبق على الآب وحده، لأنه لو كان الآب وحده هو مالئ الكل، فأين يكون الابن إلَّا في الآب. الملءُ خاصٌّ بالثالوث وليس بأُقنوم واحد بدون الأُقنومين الآخرين.

سُكنى الروح القدس فينا في سر المعمودية:

يقول الأريوسيون إن الآب وحده هو الإله الحقيقي، وبالتالي "فإن الابن والروح القدس لا يُحسَب أيٌّ منهم إلهًا حقيقيًّا، بل يحسبونهما ضمن المخلوقات العديدة والتي هي –حسب قولهم– لها نفس طبيعة الابن وهي بعيدة كل البعد عن جوهر الله الآب" (٣ ص ١٠٦). وهنا يجيء سؤال هامٌ جدًا للقديس كيرلس: "ليُدِلَّنا هؤلاء (الأريوسيون) عمن هو الله، الكائنُ أيضًا فينا إن كان الروح القدس يسكن في الذين تعمَّدوا؟ وأعتقد أنهم لا يقدروا أن يقولوا شيئًا عن الله الآب. غير أن كوننا شركاء الطبيعة الإلهية هو حقيقة لا يستطيع أحد أن ينالها بواسطة روحٍ مخلوق، لو أن الروح القدس ليس إلهًا من طبيعة الله الآب" (٣: ص ١٠٧ رجاء مراجعة الحاشية ٥٠)[١].

---

(١) نص الحاشية رقم ٥٠: أكد ق. أثناسيوس هذه الحقيقة الإلهية مدافعًا عن ألوهية الروح القدس –كما كان قد سبق فدافع عن ألوهية الابن المتجسد– وذلك ببيان كل ما أتمه الابن والروح القدس (إذ هما واحد في الجوهر) لأجل البشرية، الأمر الذي لم يكن في مقدور أيٍّ من الخلائق عمله. وفي رسائله عن الروح القدس إلى الأسقف سرابيون يقول: «وإن كنّا بالاشتراك في الروح نصير شركاء الطبيعة الإلهية فإنه يكون من الجنون أن نقول عن الروح القدس من طبيعة

وإن كان الروح القدس ليس إلهًا بالطبيعة، "فإن الله لن يأتِ إلى داخلنا بواسطة الروح القدس لأن مَن ليس له الطبيعة الإلهية –حسب قولهم– لا يستطيع أن يهبنا أن نكون شركاء الطبيعة الإلهية. وهكذا فإن مجيء المسيح إلى داخلنا مع الآب هو بلا نفع .." (٣: ص ١٠٨).

صيغة الجمع في (تك ١: ٢٦ – ٢٧):

"نعمل الإنسان على صورتنا"، ثم خلق الله الإنسان على صورته (تك ١: ٢٧). "المتكلم ليس أُقنومًا واحدًا بل أكثر من واحد وأكثر من اثنين" (٣: ص ١١١). وعندما تشوَّهت الصورة وفقدت جمالها الأول "كان تجديد الصورة يشبه ما صنعه فنانٌ من تمثال من النحاس وسقط هذا التمثال بفعل واحد من الحاسدين وتحطَّم وفَقَدَ جماله" (٣: ص ١١١)، ولم يحتمل صانع التمثال أن يرى تمثاله محطَّمًا فلم يشأ أن يقتل الحاسد، بل أعاد صُنع التمثال مستخدمًا نارًا أشد قوة مُعيدًا إياه إلى حالته الأولى" (٣: ص ١١١) جاء الرب وجعلنا نشبهه (رو ٨: ٢٩) "لأن المسيح قد شكَّلنا مرةً ثانيةً بالروح القدس حسب صورته واهبًا جمال طبيعته لنفوس الأتقياء وبطريقة عقلية (روحية) غير موصوفة" (٣: ص ١١٢). هذه الصورة ليست هي صورة الله كما هو، لأننا "نأخذ شكلًا يتناسب مع طبيعتا المخلوقة". والخلق الأول لا يقارَن بتجديد الإنسان بواسطة المسيح، لأننا خُلِقنا من جديد، ليس من العدم كما حدث في الخلق الأول، بل أعاد المسيح خلقنا وختمنا بختم الابن لكي نصبح مثله" (٣: ص ١١٣)، "فالمسيح له مجد الآب، فهو صورة الآب، ومن هذه الصورة ندرك مجد الآب وطبيعته الإلهية" (٣: ص ١١٥).

المخلوقات وليس من طبيعة الله. وعلى هذا الأساس فإن الذين هم فيه، يتألهون وإن كان هو يؤلِّه البشر، فلا يتبقى أن يُشك في أن طبيعته هي طبيعة إلهية، وفي نفس الموضع يقول: «فلو كان الروح القدس مخلوقًا، لما كان لنا اشتراكٌ في الله بواسطته، فإن كنا قد اتحدنا بمخلوق فإننا نكون غرباء عن الطبيعة الإلهية حيث إننا لم نشترك فيها». انظر الرسائل عن الروح القدس المرجع السابق. الرسالة١:٢٤. وواضح هنا تأثر ق. كيرلس بهذه التعاليم.

الرب يسوع المسيح أعطى الشريعة الجديدة:

كان من المحظور حذف أو إضافة شيء إلى الشريعة القديمة، ولكن المسيح الرب "أظهر أن الوصية القديمة لا تصلح وأعطى وصيةً جديدةً هي الوصية الإنجيلية. وقد فعل ذلك كمشرع وليس كمجرد رسول من السماء، بل لأن له السلطان الخاص بالله، وهو ما جعل الرسول بولس يؤكد أنه يحيا حسب شريعة المسيح" (٣: ص ١٢٢).

كان الابن هو المتكلم مع الآب في العهد القديم (٣: ص ١٢٤)، ولا يوجد بالمرة ما يمكن أن يفصل طبيعة الابن عن طبيعة الآب .. الله الآب له عدم الموت والابن أيضًا له نفس الخاصية في ذاته، وهو بالتأكيد عديم الموت" (٣: ص ١٢٤). فالابن مثل الآب له عدم الموت، وكلاهما "عديمي الموت"، ولذلك تُعطى الحياة بواسطة مَن هو الحياة في جوهره (٣: ص ١٢٥).

الاسم الذي فوق كل اسم:

"وأعطاه اسمًا فوق كل اسمٍ" (فيلبي ٢: ١١). الاسم الذي هو فوق كل اسم هو اسم "يهوه"، ولذلك تجثو له كل ركبة، والاعتراف به هو لمجد الله الآب. يتعثر شهود يهوه في زماننا في كلمات (فيلبي ٢: ٦-١١). ومع طريق الأريوسية الملتوي يسأل القديس كيرلس: إذا كان الاسم قد أُعطى له بسبب الإخلاء، فهو إخلاءٌ تم في الزمان، فهذا يعني أنه لم ينل شيئًا أقل، بل كشف الإخلاءُ عن طبيعته الإلهية، لأنه الابن الحقيقي الذي نصير نحن به "أبناء الله بالتبني وتكون لنا شركة الطبيعة الإلهية" (٣: ص ١٣٠). الابن لم يحسب مساواته لله خُلسةً، ولكن لأنه مساوٍ للآب، وأخلى ذاته، فلم ينل مجدًا إضافيًّا أكثر من المجد الذي كان له قبل الإخلاء لئلا يكون الابن بهذه الإضافة أعظم من الآب (٣: ص ١٣١). نحن آلهةٌ بالنعمة، ولذلك كتب الرسول بولس: "لكن لنا إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به" (١كو ٨: ٦).

بنوة الابن هي بنوة حسب الطبيعة، ليست بالتبني ولا هي هبةٌ بالروح القدس:

الابن له المجد ليس مثل باقي البشر، بل هو ابنٌ بالطبيعة، ليس بالتبني الخاص بنا نحن البشر (غلا ٤: ٦)، لأننا في اتحادنا بالابن (الذي يتم بالروح القدس في الذين يقبلون) نتغير نحن لنصير أبناء لأن الابن له القدرة على أن يجعلنا أبناء، وهي القدرة الإلهية. "نحن نأخذ ختم التبني بالابن بواسطة الروح القدس"، لأن البنوة هي صورة الابن، وهي ذات صورة الآب المستعلَنة في الابن (٣: ص ١٣٧). الابن يرسل الروح القدس من ملئه، وهو الروح الواحد معه في الجوهر، وأعطانا الروح القدس بعد قيامته عندما نفخ وقال: "اقبلوا الروح القدس" (يوحنا ٢٠: ٢٠-٢٢).

رأس المسيح هو الله (١كو ١١: ٣):

كتب الرسول أن الرجل هو رأس المرأة، وهو يعني الأصل، وهما معًا -الرجل والمرأة- من نفس الطبيعة. صار المسيح رأسَ الرجل، أي "الأصل الثاني للجنس البشري وبِكر الإنسانية التي تقدَّست بالروح، فنالت عدم الموت. ولأن الابن من ذات جوهر الآب، لذلك كتب أن الله هو رأس المسيح، أي أن أصله هو الله" (٣: ص ١٤٩-١٥٠).

خداع الأريوسية:

من الحوار الرابع للقديس كيرلس السكندري عن الثالوث، يبدو أن الأريوسية كانت لا تزال تقاوم الفناء، وتحشد كل ما يمكن حشده من كلمات الوحي في العهدين للدفاع عن تعليم يُعيد التعليم المسيحي إلى بعض مكونات الفلسفة اليونانية.

أولًا: استعلان الثالوث كإله واحد حي متحرك، يعطي ويهب ويقدم ذاته

للإنسانية. كان الفكر السائد بشكلٍ عام في الفلسفة اليونانية أن أي كائن متحرك هو عُرضة للتغيُّر. واعتبر الأريوسيون أن أي إشارة إلى ولادة الابن هي إشارة قاطعة ومحددة تؤكد تغيُّر الله، وهو ما لا يليق بالأُلوهة. واحتشد الأريوسيون للهجوم على الابن، لأن حل الإشكالية الفلسفية حلٌّ بسيط واضح، وهو أن الابن من ضمن المخلوقات. ولكن هذا الحل العقلي يهدم أساس المسيحية، لأنه يلغي:

١- استعلان أبوة الآب في الابن.

٢- ويدمر الأساس الإلهي للشركة التي جاء بها المسيح، وهي شركة الطبيعة الإلهية (١بط ١: ٣).

جوهر الإشكالية لا يخصّ الألوهة فقط، بل يخصُّ خلق الإنسان ومصيره الأبدي. **لأن استعلان الثالوث هو استعلانٌ للشركة**، وليس مجرد عرض لفظي للألوهة. فقد جاء الابن إلينا متجسدًا معلِنًا طبيعة أُبوة الآب في كيانه أو أُقنومه. فهو من الآب، ومن "فوق" حسب قول الرب يسوع نفسه. وإن كان الابن مخلوقًا، فهو لا يعرف الآب معرفةً حقيقيةً، بل يعرفه معرفة مخلوق بخالق، وهذا يُسقِط تمامًا أبوة الآب للابن، فهي أبوة أزلية يعرفها الابن، ولذلك كتب القديس كيرلس: "الطبيعة الفائقة غير الموصوفة هي فقط التي تعرف ذاتها، ولا يستطيع الذين خُلِقوا أن يقتربوا منها على الإطلاق" (٤: ص ١٦٥).

الاستعلان الإلهي في المسيح يعني شركة، وليس مجرد عرض لفظي لما هو بعيد ويعجز الإنسان عن الوصول إليه. لقد عشنا تحت "جهالة الطفولة"، أي تحت الشريعة، ولكن عندما أشرق الابن بيننا، فقد صارت معرفتنا أفضل من جهالة الطفولة .. وقد أُعلِن لنا هذا التعليم مرارًا منذ زمنٍ يسير، وهو تعليمٌ يتَّصف بالحكمة والحق .. لأن هذا التعليم يُعلِن لنا أسرار المسيح" (٤: ص ١٦٥).

عندما تَحسِب الأريوسيةُ المسيحَ ضمن المخلوقات، فهي تدخل من الباب

الخلفي لوضع الإنسان تحت الشريعة القديمة، ولذلك يسأل كيرلس الكبير: "ألن تكون شريعة موسى أفضل من شريعة المسيح لو أننا نؤمن بشخصٍ مخلوق؟ وفي هذه الحالة يجب أن توضع شريعة موسى القديمة بعد الأناجيل المقدسة، وحينئذٍ كيف يمكن "للبار أن يحيا بالإيمان" .. طالما أن الناموس لم يكمل شيئًا" (٤: ص ١٦٦).

الأريوسية الجديدة:

مَن يدرس الحوار الرابع يدرك مقدار انحدار رهطٍ من أبناء أُم الشهداء في بئر الأريوسية الجديدة – عن جهلٍ، وهو الوجع الذي لازمني منذ نشر كتاب "المرأة في التراث الكنسي الشرقي، إصدار مجلس كنائس الشرق الأوسط". فقد كان الفصل الخاص بالتطهيرات الجسدية[١] هو محور محاكمتي في دير الأنبا بيشوي، وخاض البابا شنودة حوارًا ساخنًا كان يهدف بشكلٍ أساسي إلى قرار حرمان من التناول، ولكن كان ردي ناريًّا.

ما هو موقف الأريوسية الحقيقي من الإنجيل ومن شريعة موسى بشكل خاص؟ وهنا أترك المجال للقديس كيرلس الكبير الذي كان يرد على سوء استعمال لقب "البِكر": "لقد وضع نفسه وهو الابن الوحيد الذي وُلِد من الآب، وظهر كواحدٍ منّا، لا لكي يتعرض لأمرٍ مما نتعرض له نحن عادةً، تاركًا عنه الطبيعة الإلهية وصفته كابنٍ حقيقي، لكن لكي يرفع مَن كان بطبيعته عبدًا ومخلوقًا، بمعنى أن يرفعنا للمجد المذخَّر فيه وحده، فهو الرب، وقد دعانا لكي نكون أبناء. إذن، عندما نعتبره واحدًا منّا، ندعوه بكرًا، فنحن لم نجبره لكي يكون مختلفًا عن طبيعته، وعلى الجانب الآخر عندما نقول إنه قد ارتقى بنا، فهذا لا يعني أنه قد تخلَّى عن طبيعته الفائقة، لأنه لم يتخلَّ عن طبيعته الفائقة، وإلَّا فهذا يعني أنه خضع للطبيعة المخلوقة وسادت عليه. ومَن يفكر بهذه الطريقة ألا

(١) راجع كتابنا: تطوُّر النظرة إلى التطهيرات الجسدية في الطقوس والقوانين الكنسية من العصر الرسولي حتى العصر الحديث، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٣.

يكون هذا هذيانًا كاملًا؟ وبالتالي عندما صار (الابن) مثلنا، فهو لم يتخلَّ عما هو له، لكننا نحن الذين ارتقينا إليه -بسبب نعمته- وأيضًا عبرنا حدود طبيعتنا بسبب نعمته التي كرَّمتنا وارتقينا إلى ما هو أرفع وأسمى .. ألم نُدعَ أبناء الله مولودين من الروح؟ .. لهذا نحن لدينا وصيةٌ ألَّا ندعو لنا أبًا على الأرض (مت ٢٣: ٩)، بل أن نقدم عبادتنا لله فقط لأنه أبانا، **وذلك بسبب البكر الذي قد جاء بيننا، ليس لسببٍ آخر سوى أن يجعلنا نحن أبناءً، لأن هذا هو هدف تجسده**" (٤: ص ١٧٢-١٧٣).

كانت الشريعة هي المؤدِّب إلى أن يأتي المسيح الرب. هذه الشريعة انقضت لأنها كانت ظلًّا ورمزًا. الشريعةُ كانت مؤدِّبةً لنا إلى المسيح (غلا ٣: ٢٤). الشريعة أعلنت الواحد الإله الحقيقي حسب طبيعته، ولكنها لم توجِّهُنا إلى معرفةٍ أعظم فيما يختص بسر المسيح. فلو كان الابن مخلوقًا، فإننا نكون قد ظُلِمنا لأن هذا يجعل معرفة المخلوق أفضل من معرفة الله الخالق" (٤: ص ١٦٨).

التبني في العهد القديم:

يقول أشعياء: "ربيت بنينًا ونشَّأتهم" (أش ١: ٢)، فالتبني هو علاقة المخلوق بالخالق. لكن بعد أن رفع الرب يسوع العبيد بالطبيعة إلى أبناء بالنعمة، وهو هدف تجسده (٤: ص ١٧٢)، فإن عودتنا للشريعة القديمة هي عودةٌ للعبودية. الإنسان الذي خضع للشريعة عَرِفَ الله كخالق -معرفةً حسب الطبيعة- أما الآن، فهو يعرف الله حسب النعمة، معرفةُ مَن ارتقى إلى المكانة السماوية التي وُهِبَت لنا في المسيح. لقد افتقر وهو الغني (٢كو ٨: ٩)، وجاء الرب بدعوتنا لأنْ نكون أبناءً لله وآلهةً بالتبني (٤: ص ١٧٦)، ورغم أننا خُلِقنا من تراب الأرض، إلَّا أننا "نؤمن بإلهٍ واحدٍ ونعبده، ومع ذلك نُدعى أيضًا آلهةً حسب النعمة، بل بالحري صار لنا مجد البنوة" (٤: ص ١٧٦ – ١٧٧).

- إنكار أُلوهية الابن يعني عبادة مخلوق.

- إنكار أُلوهية الابن يعيدنا إلى الشريعة القديمة.

لهذا كان مزعجًا أن يحتج البابا شنودة على شركة الطبيعة الإلهية بكلمات العهد القديم: "لا يكن لك آلهة أخرى"، وجعل من شركة الطبيعة الإلهية بدعةً وعودةً إلى سقوط الشيطان.

هنا يكتب القديس كيرلس: "هل يمكن نحن أنفسنا أن نصير آلهة حسب الطبيعة؟ لأنه في الواقع كل إنسان مِنّا يحتفظ بطبيعته حتى وإن علا بواسطة الكلمات العظيمة (مز ٨٢: ٦) "أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي" .. لأنه كما أننا لم نرتفع إلى ما هو فوق طبيعتنا عندما دُعينا آلهة، هكذا الابن –حسبما أؤمن– لم تتغير طبيعته بسبب حقيقة أنه صار كواحدٍ من بين المخلوقات .. نحن الذين نؤمن بالابن صرنا أبناء بواسطة الابن، كما أننا تشكَّلنا حسب صورته، مثلما تتشكل الأيقونة حسب الأصل.." (٤: ص ١٧٨).

لو كان الابنُ مخلوقًا فما هي الهبة التي مُنحت إلينا؟" (٤: ص ١٧٩).

وحيد الجنس "مونوجينيس":

حاول الأريوسيون تشتيت ألقاب الرب بتأويلٍ سهلٍ مقنعٍ لغير العارفين. فقد ادَّعوا أن اسم "وحيد الجنس" يعني أنه خُلق بطريقة ماهرة فريدة (٤: ص ١٨٠). ولكن عندما يفقد الابن الوحيد مكانته، عندئذٍ يفقد الإنسان نفسه مصيره الأبدي.

كان رد القديس كيرلس على هذا الادعاء هو أن إنكار الولادة الأزلية للابن يعني منطقيًا أن الآب لم يعد الآب. والادعاء بخلق الابن يجرد الآب ليس فقط من الأبوة الأزلية، بل يعني سكون وانعدام حركة اللاهوت "لأن الخلق قد تم وانتهى"، ولم يعُد عند الله أيُّ عملٍ آخر (٤: ص ١٨١)، ولكن أمام الثالوث عملٌ دائم أشار إليه الرب نفسه "الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال" (يوحنا ٥: ١٧)، لأن دوام عمل الآب بالابن أسند

للابن عمل الخلق والخلاص، وهو دليلٌ على أُلوهية المخلص، فلا يخلق مع الآب إلَّا الذي له ذات القدرة، ولا يخلِّص إلَّا من هو مساوٍ للآب.

هذا ما فعله الوسيط ربنا يسوع:

حوَّل الطريقُ المعوجُ المسيحيةَ إلى صراعٍ حول الألفاظ أو الكلمات وإلى صراعٍ على تأويل هذه الألفاظ أدَّى إلى تحويل الاتجاه إلى مجرد الكلام لا إلى الاختبار والمعايشة. ويسجِّل القديس كيرلس أن "الأمم عرفوا إلهًا حيًّا حقيقيًّا، وبالإيمان فُتِنوا بالابن، بينما وصل الأريوسيون إلى حماقة الأفكار .. وقالوا إن الابن مخلوقٌ" (٤: ص ١٨٧). "فالأمم عادوا إلى الله الحي وآمنوا باسم الرب يسوع وعادوا للسجود للابن مع الآب"، فإذا أنكر الأريوسيون أُلوهية الابن، يكونوا قد عادوا إلى ضلال الوثنية (٤: ص ١٨٧). وعندما قال الرب: "أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي" (يو ١٤: ٨)، فهذا لا يمكن أن يقود إلى الإيمان بمخلوق مع الخالق، فالإيمان بالآب أُعلِن بواسطة الابن، والإيمان بالابن لا ينفصل عن الإيمان بالآب، بل إن الإيمان بالابن هو الذي يقود المؤمن الحقيقي – بواسطة الابن– إلى الإيمان بالآب الذي ولده" (٤: ص ١٨٩).

لقد جاء الوسيط بالولادة الروحية، وهي صورة الابن التي بها تشكَّلنا حسب بهائه الإلهي عن طريق الروح القدس، فصرنا شركاء الطبيعة الإلهية، وذلك لقرابتنا للابن الذي هو الله" (٤: ص ١٩٠).

لو افترضنا أن الابن مخلوقٌ حسب ادعاء الأريوسيين، "فكيف استطاع أن يعطي لنا ختم المعمودية الإلهي؛ لأنه كمخلوقٍ يعجزُ عن ذلك، وسيكون سر المعمودية مجرد خيال وخداع" (٤: ص ١٩٠). و"الختم" تعبيرٌ يظهر في كل صلوات المعمودية في كل الكنائس الأرثوذكسية، وهو يعني امتلاك الثالوث للإنسان، وهو من علامات الشركة في الطبيعة الإلهية، لأنه صورة المسيح التي تُطبَع فينا، وهو شكل المسيح الذي أخذناه في المعمودية (٤: ص ١٩٠ – ١٩١). وصورة المسيح فينا هي صورة إلهية غير مخلوقة (٤:

ص ١٩١)، وقبولنا الصورة الإلهية، وهي صورة المسيح تعني حسب كلمات كيرلس الكبير: "أُعيدت خلقتنا حسب بهاء المسيح الذي يفوق كل الخليقة لأن المسيح يتصوَّر داخلنا بسرٍ لا يُوصَف، وهو لذلك ليس مخلوقًا داخل البشر المخلوقين لأنه إلهٌ وغيرُ مخلوقٍ، أما نحن فلنا طبيعة مخلوقة ومجبولة مشكّلًا إياها (المسيح) من جديد حسب صورته بواسطة الروح القدس واضعًا هذا الخلق الجديد في مرتبةٍ أعلى من رتبة كل المخلوقات" (٤: ص ١٩٢ راجع أيضًا الحاشية رقم ١٠٢)[١].

(١) نص الحاشية رقم ١٠٢: "يثبت ق. كيرلس أُلوهية الابن، من خلال عمله في داخلنا ويتبع نفس الأسلوب الذي اتبعه في الحوار الثالث. انظر ص٥٢م. والجدير بالذكر أن ق. أثناسيوس استخدم نفس المنهج في سياق دفاعه عن الروح القدس في مواجهة «المحرّفون» الذين أنكروا أُلوهية الروح حاسبين إيّاه ضمن الأرواح المخلوقة وبالتالي فإن عمله في داخلنا كان سيكون عملًا غير إلهي. ومبدأ ربط الدفاع عن أُلوهية الروح القدس بالدفاع عن أُلوهية الابن مبدأ أساسي في تعاليم ق. كيرلس الذي اعتمد على تعليم ق. أثناسيوس الذي واجه تعاليم هؤلاء المحرفين بعد أن أوضح «أن هذا التفكير ليس غريبًا على الآريوسيين، لأنهم ـ إذ انكروا كلمة الله ـ فإنه من الطبيعي أن ينطقوا بنفس التجديف ضد روحه» انظر الرسائل عن الروح القدس، المرجع السابق، الرسالة الأولى، فقرة: ٢. ولهذا نجد أن ق. أثناسيوس يُثبت أُلوهية الروح القدس أيضًا من خلال عمله في داخلنا فيقول: إنه يقال عنا إننا «شركاء الله» لأنه يقول: «أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُفْسِدُ هَيْكَلَ اللهِ فَسَيُفْسِدُهُ اللهُ لأَنَّ هَيْكَلَ اللهِ مُقَدَّسٌ الَّذِي أَنْتُمْ هُوَ» (١كو٣: ١٦-١٧) فلو كان الروح القدس مخلوقًا، لما كان لنا اشتراك في الله بواسطته، فإن كنا قد اتحدنا بمخلوق فإننا نكون غرباء عن الطبيعة الإلهية حيث إننا لم نشترك فيها. أما الآن فلكوننا ندعى شركاء المسيح وشركاء الله، فهذا يوضح أن المسحة والختم الذي فينا ليس من طبيعة المخلوقات بل من طبيعة الابن الذي يوحدنا بالآب بواسطة الروح الذي فيه. هذا ما علّمنا إيّاه يوحنا عندما كتب «بِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّنَا نَثْبُتُ فِيهِ وَهُوَ فِينَا: أَنَّهُ قَدْ أَعْطَانَا مِنْ رُوحِهِ» (١يو٤: ١٣). ولكن أن كنا بالاشتراك في الروح نصير «شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلهِيَّةِ» (٢بط١: ٤) فإنه يكون من الجنون أن نقول إن الروح من طبيعة المخلوقات وليس من طبيعة الله وعلى هذا الإساس فإن الذين هم فيه، يتألهون. وإن كان هو يؤله البشر فلا ينبغي أن يُشك في أن طبيعته هي الطبيعة الإلهية» المرجع السابق. الرسالة الأول فقرة: ٢٤. والجدير بالذكر أن ق. كيرلس عندما كتب مدافعًا هو أيضًا فيما بعد، عن أُلوهية الروح القدس استخدم نفس المنهج ونفس الكلمات تقريبًا فنجده يكتب: «وإن كنا نؤمن بأن الله قد أتى ألينا بواسطة سكنى الروح القدس داخلنا فكيف يمكن أن يكون (الروح) مخلوقًا؟ لأنه من غير الممكن أن يُقيم الله داخلنا بواسطة مخلوق، إذ أن الله يسمو على الكون (المخلوق). لأنه كما أنه بسكنى الله داخلنا نصبح شركاء الطبيعة الإلهية، وليس شركاء الطبيعة المخلوقة هكذا فإذا سَكَنَ داخلنا مخلوق، فلن نكون بعد شركاء الطبيعة الإلهية، بل شركاء الطبيعة المخلوقة. إذا فالروح هو الله، طالما أن الله يسكن فينا بالحقيقة من خلاله» انظر ق. كيرلس، أُلوهية الروح القدس، ترجمة د. سعيد حكيم. المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، مايو ٢٠٠٧ ص ٨.

هبة الروح أُعطيت عندما خلق الله الإنسانية:

كانت نفخة الحياة هي هبة الروح القدس (تك ٢: ٧)، وعندما تجسَّد الابنُ كانت الخليقة قد تركت أو هربت من الخالق، وانعطف الإنسان نحو الشر، لكن الابن عندما "وجد طبيعة البشر خالية من الصلاح الذي وهبه الله في القديم عندما خلقها؛ لهذا أسرع بأن يشركنا في ملئه مثلما من نبعٍ قائلًا "اقبلوا الروح القدس" (يو ٢٠: ٢٢)، وهكذا كان تجديد البشرية بنفخة الروح القدس وإعادتها إلى رتبتها الأولى مثلما حدث في خلقها عند بدء الخليقة (راجع ٤: ص ١٩٥). وهكذا تم التجديد الكياني للإنسانية بدعوة الإنسانية لشركة الطبيعة الإلهية بواسطة الروح القدس الذي أُعطيَ من جديد بعد قيامة الرب يسوع (راجع شرح يوحنا ٢٠: ٢٢ للقديس كيرلس الكبير). هذا يؤكد أُلوهية الابن، لأن تجديد الصورة الإلهية، وهي صورة المسيح لا يمكن أن يحدث إذا كان المسيح مخلوقًا، **وما فائدة تجديد مخلوق ليكون على صورة مخلوقٍ آخر**، ولكن لأن الرب هو الإله، بات من الواضح أننا أخذنا صورة الرب الإله، وهو الابن الأزلي الذي به نتشبَّه، فلو كان مخلوقًا، فكيف يمكن أن نتشبَّه بمخلوق ونحن أنفسنا مخلوقين؟" (٤: ص ١٩٦).

الوسيط أتى إلينا بواسطة تجسده، لأن تجسده هو الذي جعل الابن يحمل المجد الإلهي ومذلة التجسد أيضًا.

حلول الابن فينا بالروح القدس:

أسَّس التدبيرُ الشركةَ الأبدية بين الثالوث والإنسانية، ولذلك ندعو الآب أبانا (غلا ٤: ٦) (راجع الحوار الخامس ص ٢٥٥). وسكن الآب والابن فينا بالروح القدس. هكذا صار لنا تَبَنٍّ أبديٍّ، وهو حسب كلمات القديس كيرلس "البنوة عطية الثالوث" كتعبير دقيق على أننا أبناء الله، فإن الروح القدس يسكن فينا ويشكِّلُنا على صورة الابن. هذا ما أُعطيَ للإنسانية في المسيح ويناله الذين يؤمنون بالابن.

البنوة ليست علاقة شرفية:

هذا عكس ما أُشيع في زماننا من فكرٍ تخطى كل حدود الأرثوذكسية، لأنه:

١– ينكر الاستعلان الإلهي للثالوث الذي جمع البشر في عطية واحدة، وهي عطية التبني، وساد على الولادة الجسدانية بولادة روحية سمائية، وبالتالي فإن شرفية التبني هي إنكارٌ صريحٌ لسر المعمودية برمته، وإنكارٌ لأهم ما جاء به التدبير، وهو استعلان من أجل الشركة، لأن الثالوث لم يعرض حياته وكينونته من أجل أن يحاط الاستعلان بألفاظ بشرية، بل أن يفتح –إذا جاز هذا التعبير– حياته لنا.

لقد حاولت، وسوف أحاول دائمًا أن أتجنب استعمال كلمة "وجود"، لأنها خاصة بالمخلوقات، أما كلمة "الكائن والكينونة"، فهي أفضل لغويًّا ولاهوتيًّا.

٢– شرفية البنوة تحوِّل تجسُّد وصلب وقيامة ابن الله إلى أحداث تاريخية عقيمة، نراها ونصدقها، ولكنها بعيدة عنّا. لا أنسى ما كان يقوله المعلم راتب، وهو أحد أتقياء الأقباط الذي كان يحضر من صعيد مصر ويذهب لزيارة الكنائس الأثرية في مصر القديمة، وكان محبًّا للأب أقلاديوس كاهن كنيسة القديسة مريم المعروفة باسم بابليون الدرك، وهي على ما يبدو كانت الجزء الباقي من الحصون الرومانية، لأن تلال المقطم تبعد مسافة ٥ دقائق عن الكنيسة. وقد عاش أبونا مينا المتوحد في هذه الكنيسة فترة من الزمان. هذا ما قاله لي المعلم راتب:

برشم صليب رب المجد

هنا الجلجثة والقبر والقيامة

يعطيها لك الروح القدس

لما تقول باسم الآب والابن والروح القدس.

ونظر لي وقال: الكلام ده صعب عليك، فقلتُ له: هو جديد عليَّ. فقال لي: أسأل أبوك مينا البراموسي عن رشم الصليب. وتمرُّ الأيام وأسأل أبويا مينا البراموسي عن معنى كلمات المعلم راتب. وابتسم وقال لي: هو شاطر وفاهم، لأن يا حبيب أبوك، المسيح الرب يعطي لنا قوة الخلاص بالروح القدس، ونحن نرشم علامة الصليب بقوة مسحة الميرون.

وهنا الجلجثة + وهنا القبر الفارغ + وهنا أباد الرب قوة الهاوية + وهنا القيامة.

انفصال الأقانيم مستحيل:

نحن نعترف بإلهٍ واحد "أما إذا فسخنا وفصلنا الأقانيم على أساس وجود اختلافات في طبيعتهم ووضعنا كلًّا منهم على حدة منفصلًا بطبيعته، فإننا بهذا وبدون أن نريد (عن جهل) نعترف بثلاثة آلهة. وما هو المبرر الذي سوف ينقذنا من الوقوع في ضلالة هذا الاعتقاد؟" (٥: ص ٢٥٨).

على هذا الأساس يبدو أن حوار العدل والرحمة في ميمر العبد المملوك قد بُنيَ على اختلاف طبيعة الآب (العدل) عن طبيعة الابن (الرحمة)، وهو يدلُّ بغير شكٍّ على فشلٍ واضح في فهم عقيدة الثالوث.

نستطيع أن نجاهر بالاختلافات الشخصية بين إنسانٍ وآخر، ولكن رغم ذلك يبقى كلُّ البشر لهم طبيعة واحدة هي الطبيعة الإنسانية.

ولذلك لم نفهم الاعتراض الذي سجَّله الانبا شنودة على أن المسيح في تجسده أخذ جسد يهوذا وجسد بيلاطس ودقلديانوس ... الخ هؤلاء من طغاة الزمان. لأن الذي يجمع هؤلاء الأشرار وباقي الإنسانية، بكل يقين، هو الطبيعة الواحدة. وعندما نعمِّد أحدًا ما، فإن الذي يموت ويُدفَن هو آدم الأول، مهما كان عمر مَن ينال المعمودية، ليقوم جديدًا في آدم الثاني يسوع المسيح.

إلهٌ وإنسانٌ وصفات الإنسانية في المسيح

كانت كلمات (عب ٢: ١١)، وهي "المقدِّس (الرب) والمقدَّسين هم من أصل واحد، ولذلك لا يستحي (الرب يسوع) أن يدعوهم إخوته"، كلماتٌ خاصةٌ بالتدبير، ولا تُنقِص من أُلوهية الابن. وإن كان شخصٌ مثل أرميا النبي (١: ٥) قد تقدَّس من بطن أُمه، فهو ضمن كثيرين يتقدسون لسبق معرفة الله أنهم سيعيشون في حياة البر والحق، وسيكونون مستحقين أن يكونوا شركاء الروح القدس .. لكن تقديس هؤلاء لا علاقة له بعمل الروح القدس" (٦: ص ٢٧٨)، لأن عطية الروح القدس في العهد الجديد أعظم بكثير من عطاياه في العهد القديم، لأنه لا يمسح فقط المؤمنين بيسوع، بل يسكن في كيانهم.

جاء المسيح ليكون "هو البداية الثانية للجنس البشري، وأن يكون ميلاده من العذراء مريم بدون أبٍ بشريٍّ، حتى يكون لنا جميعًا معه آبٌ واحدٌ هو الله. فنسموا إلى مجدنا الأول .. وطالما أنه صار إنسانًا فهو يأخذ الروح –حتى لو كان بلا خطية– لكي يستقر الروح في طبيعته الإنسانية كبدايةٍ بطريقة فائقة، ويصبح أصلًا ثانيًا لخلقة الإنسانية .." (٦: ص ٢٨١). ولذلك اعتمد وحلَّ عليه الروح القدس عندما اعتمد، رغم أن طبيعته الإنسانية لم تتلوث بالخطية، ومع أنه مَلِكٌ وجليسٌ مع الله الآب، إلَّا أنه مُسِح ملكًا عندما صار إنسانًا مثلنا بواسطة الروح .." (٦: ص ٢٨٢).

روح الابن:

عندما يسأل القديس كيرلس: الروح القدس هو لمن من الاثنين؟ هل هو روح الله الآب فقط أو روح الابن أيضًا؟ فإنه يضع التحديد السائد في الكنيسة الجامعة؛ ألا وهو أن الابن مساوٍ للآب بالجوهر، ومتمايزان كأقنومين "حيث أن الواحد متمايز أو (مختلف) عن الآخر.

في التدبير جاء الروح القدس لكي "يقدِّس الخليقة ويعيد تشكيلها" (٦: ص ٢٨٨). ومشابهتنا لصورة الخالق تتم بشركتنا في الروح القدس، وصورة الخالق هو الكلمة أو اللوغوس الذي به "يتصوَّر المسيح فينا"، لأننا نرى صورتنا في المسيح ونتغير إلى ذات الصورة من مجد إلى مجد كما مِن الرب الروح" (٢كو ٣: ١٨). والتقديس هو "تطهيرٌ وانعتاقٌ من الفساد والخطية" (٦: ص ٢٨٩)، وهو ما يجعل تقديس الابن هو البداية – حسب التدبير– لأن كل ما يحدث لنا من تجديد هو "من الآب بالابن في الروح القدس" (٦: ص ٢٩٠)[١]. فالابن المتجسد –تقدَّس معنا– حسب طبيعته الإنسانية "عندما اتخذ طبيعة البشر، رغم أنه هو ضابط الكل الذي لا يخجل من أن يدعونا اخوته" (٦: ص ٢٩٠).

هنا يجب أن نُسقِط تمامًا كل ما قيل عن نوال قوة أو طاقة، لأن الأمر خاصٌّ بتحوُّل الإنسان في المسيح إلى ذات صورة الخالق. فإن قيل إن الابن تقدَّس وهو في الجسد، فإن مَن يقدِّس الخليقة ليس من الخليقة، بل يعلو على الخليقة.

اعتراض القديس كيرلس هو اعتراضٌ على عدم معقولية التعليم الأريوسي، لأن "قوانين الوجود" تؤكد لنا أن مَن يقدِّس آخر، يقدِّم له ما ليس له وجودٌ في طبيعة الآخر. وعندما أعطى الابنُ لنا الروح القدس "الكائن في داخلنا"، فهو عطية الابن التي أُضيفت إلى الكيان الإنساني. ولما تقدَّس المسيح الرب، أعطى التقديس لنا، وهذا العطاء هو عمله الإلهي الذي تم فيه هو عندما تجسَّد، ومن المسيح نأخذ نحن هذه العطية (٦: ص ٢٩٣ – ٢٩٤).

---

(١) راجع أيضًا ذات العبارة عند ق أثناسيوس الرسولي في رسائله إلى سرابيون ١: ٣٠ حيث يقول: "وهذا هو ما علَّم به الرسول أيضًا حينما كتب إلى الكورنثيين في الرسالة الثانية قائلًا: "نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم" (٢كو ١٣: ١٣). لأن هذه النعمة والهبة تعطى في الثالوث **من الآب بالابن في الروح القدس**، وكما أن النعمة المعطاة هي من الآب بالابن، هكذا فانه لا يكون لنا شركة في العطية إلَّا في الروح القدس. لأننا حينما نشترك فيه تكون لنا محبة الآب ونعمة وشركة الروح نفسه".

هل يأخذ الابن سلطانه ومجده من الآب؟

عندما قال الرب يسوع "مجّدني أيها الآب بالمجد الذي كان لي عندك قبل خلق العالم"، وقبل ذلك قال الرب: "أتت الساعة مجّد ابنك كي يمجدك ابنك أيضًا. إذ أعطيته سلطانًا على كل جسد ليعطي حياة أبدية ..." (يو ١٧: ١-٨)، كانت حُجة الأريوسيين هي عبارة القديس بطرس في يوم الخمسين: "الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم ربًّا ومسيحًا" (أع ٢: ٣٦)، فهو حسب الأريوسية لم يكن ربًّا وصار ربًّا. ولكن هذا لم يكن تحوُّلًا في طبيعة الابن الإلهية، بل لأن الابن احتمل خزي الصليب واستهان بعار الصليب، ولما انتصر ظهر لنا كَرَبٍّ غَلَبَ الموت في جسده "فقد دحر الموت بنفسه وأحيا جسده بحياته، فصارت الطبيعة الإنسانية التي صارت طبيعة خاصة بأُقنومه قادرةً على إعطاء الحياة وعلى إظهار الجسد الإنساني الترابي أنه صار يعلو على الموت" (٦: ص ٢٩٦).

من ذكرياتي مع المعلم راتب (تحدثنا عنه قبلًا) الذي كان يجول القطر المصري، وذهب للقدس سيرًا على قدميه أنه جلس خارج كنيسة العذراء مريم – بابليون الدرك، وأنشد:

عجيبٌ أنت يا يسوع ربي

أخذت طبعي الوضيع

لتعطي لي طبعك الرفيع

جئت لتحول الترابي إلى سمائي

وصرت أنت وجودي وبقائي

بموتك المحيي هدمت الموت

وقمت لتحيي كلَّ ميت".

لا زلت أُردد هذه الكلمات، فهي عصارة التدبير الإلهي. تعلَّمها ذلك الرجل من الحياة الأرثوذكسية التي عاشها كسائحٍ متجول. وكما كان يظهر كان يختفي.

هل كان الابنُ يعلم اليوم والساعة؟

كانت كلمات الرب حسب إنجيل مرقس: "أمَّا ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلَّا الآب" (مرقس ١٣: ٣٢).

كان هذا أحد أهم اعتراضات الأريوسيين على أُلوهية الرب يسوع. ويجيب القديس كيرلس بأن تجسد الابن جعله يأخذ كل خصائص الطبيعة الإنسانية. فالابنُ حَفِظَ لنفسه الكرامة والمجد اللذان يخصان الله" (٦: ص ٣٣٠)، هو "يُسجد له في الأرض وفي السماء" (٦: ص ٣٣٠)، ويسوع الإنسان عاش بين اليهود لأنه وُلِدَ بحسب الجسد من جذر يسى (٦: ص ٣٣١)، وسجد الرب يسوع "كإنسان رغم كونه الله حسب الطبيعة" (٦: ص ٣٣٢)، وسجود الملائكة للبِكر يسوع يؤكد أُلوهيته (فيلبي ٢: ١٠-١١).

لقد استُعلِن سِرُّ المسيح "حسب حكمة الله المتنوعة .. والمرنم يقول "ارفعي أيتها الأرتاج رؤوسكن .. ليدخل ملك المجد. مَن هو ملك المجد .. رب الجنود هو ملك المجد (مز ٢٤: ٩-١٠)، وهو ما تم في قيامة الرب "بعدما حطَّم الموت وفضح الجحيم.." (٦: ص ٣٣٥)، فالمسيح سجد للآب كإنسان. هذا شُوهِد في بستان جثيماني، ولكن هذا هو جلال التدبير، لأن الرب حتى قبل صعوده قال إنه سوف يُرسل روح الآب لكي يمجّده الروح القدس ويأخذ من الابن ويخبر الكنيسة (٦: ص ٣٣٦). وكان التلاميذ يبحثون عن معرفة كل شيء، ولذلك قال لهم الرب يسوع: "ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه ولكنكم ستنالون قوة متى حلَّ الروح القدس" (أع ١: ٧-٨)، وبهذا حوَّل الرب يسوع عقولهم إلى ما هو مناسب. وعندما جاء المولود

الأعمى وكان التلاميذ متأثرين بأفكارٍ من الشريعة، سألوا المسيح: "يا مُعلم من أخطأ؛ هذا أم أبواه حتى وُلِد أعمى؟" (يو ٩: ٢)، وكانت إجابة الرب: لا هذا ولا أبواه، وبذلك "دحض هذه الفكرة باعتبارها فكرة مبتذلة تناسب جهل اليهود" (٦: ص ٣٣٨).

والإيمان بتجسُّد الرب يؤكد أنه كان يجهل ما تجهله الطبيعة الإنسانية، رغم أنه الابن، لأن معرفة اليوم والساعة لا تخص الإنسان.

بدون الروح القدس لا شركة لنا في الله:

بعد أن قدَّم القديس كيرلس التسليم الكنسي من الأسفار عن أُلوهية الروح القدس، وهو الجانب الدفاعي الذي اشتُهِر به آباء القرن الرابع والقرن الخامس، خصوصًا الكلمات التي تؤكِّد أُلوهية الروح القدس مثل (أع ٥: ٣-٤) وغيرها، قدَّم الجانب الاختباري وهو شركة الله (٧: ص ٣٤٩)، ووضَعَ التسليم الكنسي بأسلوب استنكاري، فالروح القدس هو واحدٌ في الجوهر مع الآب والابن، وإلَّا كيف ينال القديسون شركة الله إلَّا بواسطة الروح القدس. فليس بالآب والابن فقط نصير شركاء الطبيعة الإلهية، ولا يمكن أن نصبح أبناء الله إلَّا بحلول الروح القدس فينا (٧: ص ٣٤٩). فكيف يمكن أن يكون أيُّ إنسانٍ شريكًا في الطبيعة الإلهية بدون الله؟ كيف كان الله في حياة الذين سبقونا وعاشوا تحت العهد القديم، بل وكيف يمكن أن يأتي في داخلنا إن كان الروح مختلفٌ عن الآب في الجوهر؟ فالله لن يكون فينا إذا كان الروح القدس من طبيعة غير طبيعة الآب والابن (٧: ص ٣٥٠).

ما غاب عن تعليم مدرسة الانفصال عن الثالوث؟

أولًا: خلق الإنسان على صورة الله ومثاله. وحسب كلمات القديس كيرلس، فالروح هو الذي يرسم في داخلنا الصورة الإلهية ويختمنا بالبهاء الفائق.

وهنا علينا ألَّا نلعب بالألفاظ، لأن الخلق على صورة الله ومثاله **لم يكن خلقًا على صورة نعمة الله، بل على صورة الله** (٧: ص ٣٥٢). هذا تمَّ عندما نال الإنسان نفخة الروح القدس، وهي ذات النفخة التي أعادها الرب القائم من بين الأموات (يوحنا ٢٠: ٢٢)، إنها "نفخة الحياة، وهي الحياة حسب صورة الله ومثاله. وعندما رفض الإنسان هذه الشركة عاد إلى كيانه المخلوق من العدم. لكن المسيح جاء لكي يجدد الخليقة الساقطة وأعاد نفخة الحياة. والرب قال: "اقبلوا الروح القدس، ولم يقل اقبلوا نعمة الروح القدس" (٧: ص ٣٥٤)، لأن الروح القدس هو الذي يعيدنا إلى صورة الله ومثاله، أي إلى الصورة الأولى، وهي ختم الآب التي ختمنا بها الرب يسوع (٧: ص ٣٥٤). ويؤكد ذلك القديس بولس: "يا أولادي الذين أتمخض بكم إلى أن يتصور المسيح فيكم" (غلا ٤: ١٩)؛ هذا يحدث بواسطة الروح القدس الذي يهبنا أن نكون على صورة المسيح، هو يرسم ذاته في داخلنا فنتغيَّر عن طريق الروح القدس الذي هو صورته حسب الطبيعة. إذن الروح هو الله الذي يعطينا أن نكون على صورة الله، وهذا لا يتم بواسطة نعمة تعمل كخدمة، ولكن بالاشتراك في الطبيعة الإلهية (رو ٨: ٢٩-٣٠)" (٧: ص ٣٥٥).

إذن، الصورة أو الختم هي تحوُّل كيان الإنسان إلى ذات صورة أو رسم أو ختم، لأن هذه الكلمات تؤكد التشابُه التام بالأصل، أي الرب يسوع المسيح نفسه.

ثانيًا: "لقد دُعينا هياكل الله أو بالحري آلهة" (مز ٨٢: ٢٦)، **هذا غير ممكن لو كانت شركتنا شركة في مجرد نعمة بسيطة لا كيان لها** (٧: ص ٣٥٥) لأننا: "هياكل للروح الحقيقي الكائن، ولهذا فنحن ندعى آلهةً لأنه من خلال اتحادنا به (بالروح القدس) نصبح شركاء الطبيعة الإلهية غير الموصوفة (٧: ص ٣٥٥). هكذا يؤكد القديس كيرلس أُلوهية الروح. وتمايُز الروح عن الآب والابن لا ينفي طبيعته الإلهية، بل يؤكد أنه له ذات طبيعة الآب والابن، لأنه -حسب التسليم الكنسي- الآب **كائنٌ** في الابن، والابن في

الروح القدس، وكل أقنوم **كائنٌ** في الآخر" (٧: ص ٣٥٨)[١].

ثالثًا: في الروح القدس "يكون المسيح معنا ويسكن فينا، ساكبًا فينا لا روحًا غريبًا، بل روحه الذي له ذات الجوهر معه ومع الآب" (٧: ص ٣٥٩).

كانت دراستنا لكتاب القديس كيرلس "الحوار عن الثالوث" في ١٩٦٨ في جامعة كامبريدج هي مصدر التصدي لمقالات مطران دمياط المتنيح عن قبول "روح قدس"، وليس "الروح القدس"[٢]، وأيضًا عن تزوير الأرثوذكسية بأننا نقبل نعمة أو طاقة أو قوة، لأن هذا الادعاء يمثل أخطر تهور، ومحاولة رد تجديد الإنسان إلى ما هو غير الثالوث، أي إلى ما هو غير إلهي. وكان صدور الترجمة العربية لكتاب القديس كيرلس "حوار حول الثالوث"، بمثابة العون الإلهي الذي كنّا في أشد الحاجة إليه لكي نقدم الأساس الآبائي الذي عليه بُنيت الكنيسة الجامعة، وهو الأساس الذي خبا تحت ثقل ووطأة حكم المماليك والأتراك العثمانيين، حيث انقطع التواصل مع تراث الآباء، وبالذات القديس كيرلس الكبير، وإن ظلَّت الحياة الليتورجية حاوية وحافظة للتعليم، ولكن كانت حاجتنا إلى وجود شرح آبائي ضرورة قصوى لكي لا ينفرد أحد بشرح الليتورجيا حسب تقديره الشخصي.

الروح القدس في داخلنا، وهو سبب اتحادنا بالثالوث:

"خاطب ربنا يسوع المسيح كل مؤمن صالح قائلًا: "إن أحبني أحد يحفظ كلامي

---

(١) استخدمت هنا كلمة "كائن" بدلًا من كلمة يوجد المستخدمة في الترجمة التي أشرنا إليها، لأنني لا أُفضِّل بالمرة كلمة "موجود"، أو الفعل "يوجد" للتعبير عن الأقانيم، لأننا هكذا نتكلم عن المخلوقات، فنحن لنا وجود جاء من العدم، ولكن الله كائنٌ، ومنه نحن ننال الوجود.

(٢) في قضية غياب حرف التعريف أل وأثرها على التسليم الرسولي الخاص بالروح القدس، انظر كتابنا: أقنومية الروح القدس بين الإنكار وفساد الاستدلال، دراسة في الكتاب المقدس والآباء والطقس، جذور للطباعة والترجمة والنشر، القاهرة ٢٠١٤.

ويحبه أبي، وإليه نأتي وعنده نصنع منزلًا" (يوحنا ١٤: ٢٣). وأيضًا قول يوحنا الإنجيلي: "بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا: إنه أعطانا من روحه" (١ يوحنا ٤: ١٣). فلن يكون إلهًا حقيقيًا بحسب طبيعته مَن يسكن في داخلنا إن كان الروح القدس الذي قبلناه غريبًا أو منفصلًا من جهة الطبيعة الإلهية، لأنه من الآب يأتي وهو كائنٌ في الآب وله ذات ربوبية الآب .. لأنه مكتوبٌ: "لنا إلهٌ واحدٌ الذي منه جميع الأشياء ونحن له. وربٌّ واحدٌ يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به" (١كو ٨: ٦)، ولأن الربَّ واحدٌ حسب الكتاب، فالرب هو أيضًا الروح .." (٧: ص ٣٥٩).

وفي عبارة قاطعة لا بُد من قبولها، لأنها تؤكد لنا المصير الأبدي يقول القديس كيرلس: "فالرب يسوع عندما كان مزمعًا أن يصعد إلى السماء ... أرسل لنا المعزّي الذي به وفيه يكون المسيح معنا ويسكن فينا، ساكبًا فينا لا روحًا غريبًا عنه، بل روحه الذي له ذات الجوهر مع الآب ومعه" (٧: ص ٣٥٩) ولأن المسيح الرب أعطانا روح الآب وهو أيضًا روح يسوع (رو ٨: ٩) ظهر لنا بكل يقين أن شركتنا مع وبالثالوث هي:

١– ليست شركة لفظية، ولا مؤسَّسة على استعلان بنوي يُسمَع أو يُقرأ فقط، بل على شركة في أقانيم الثالوث.

٢– قبول الروح القدس كأقنوم هو قبول الله نفسه، وهو ليس موضوعًا يُقال أو عظةٌ تُسمع، بل هو الحياة الجديدة التي تم فيها تجديد الإنسان.

أقوال الله هي أقوال الروح القدس:

"ما نطق به الله هو نفس الكلام الذي ينطق به الروح القدس" (٧: ص ٣٦٠)، لأن وحدة جوهر الأقانيم هي سبب اتفاق الأقانيم "في كل شيء، أي في القول والفعل والمجد والشركة والقدرة وفي كل ما هو مجيد في الطبيعة الإلهية".

وبالمقارنة بين خدمة العهد القديم وخدمة العهد الجديد، فلن تكون خدمة

قديسي العهد القديم أكثر مجدًا من خدمة الرسل، لأن حتى الرسول بولس وصف خدمة العهد القديم بأنها خدمة الدينونة والموت، بينما خدمة العهد الجديد هي خدمة الحياة والحق (٢كو ٣: ٦) (٧: ص ٣٦١).

ما هو مجد الله؟

هو سمو الطبيعة الإلهية التي لا يمكن مقارنتها بالطبيعة المخلوقة، لأن الله "خالقٌ من العدم ويأتي بالوجود لكل ما هو غير موجود، ومدبّر حياة الكل بكل صلاح، ويعطي الحياة وهو الذي يقدّس ويُغني بالحكمة مَن يريدون الحكمة" (٧: ص ٣٦٢).

سؤال من القديس كيرلس:

"هل تستطيع طبيعة مخلوقة ومصنوعة أن تُؤلِّه أولئك الذين ليسوا آلهةً؟". ويضع على لسان أرميا المحاور: "إن مَن في مرتبةٍ دُنيا لا يستطيع أن يعلو إلى مَن هو في مرتبةٍ أسمى وأكثر" (٧: ص ٣٦٣).

ورد القديس كيرلس جديرٌ جدًا بالدراسة، فهو يؤكد لنا أن ما هو مخلوق لن يستطيع أن يؤلِّه مَن هو مخلوق مثله، ولكن ما يُؤلِّه هو سمو الخالق الذي يضع شركة صورته أو خصائصه الإلهية في داخل نفوس القديسين بواسطة الروح القدس. وهذه هي صورة الابن التي تجعلنا آلهةً وأبناء الله "بالتشبُّه الذي لنا مع الابن" (غلا ٤: ٦). هذا يؤكد لنا أُلوهية الروح القدس. فالروح ينقل الإنسان من العبودية للطبيعة الإنسانية إلى الحرية لأن صلاح الأُلوهة هو الذي يمنح هذه الحرية التي تجعلنا نتغير إلى صورة المسيح ونتحول من مجد إلى مجد، كما من الرب الروح (٢كو ٣: ١٧-١٨)، ولذلك نحن لم نأخذ روح العبودية أيضًا للخوف، بل أخذنا روح التبني الذي به نصرخ أبَّا أيها الآب" (٧: ص ٣٦٥).

روح الحرية:

العبودية من خصائص الطبيعة المخلوقة، ولكن الرب يسوع دعانا أحباء لأن العبد لا يعلم ما يفعل سيده، لكنني قد سميتكم أحباء لأنني قد أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي (يوحنا ١٥: ١٤-١٥)، وهنا بالذات يكتب القديس كيرلس: "ينبغي أن نطلب الحرية. إذن هذه الحرية قد نبتت -على كل حال- من الطبيعة الحرة، والتي لا يجب أن تُدرَك على أنها من ضمن الخليقة، أو أنها تُحسَب من ضمن المخلوقات" (٧: ص ٣٦٥)، فالروح حرٌّ، وليس تحت نير عبودية الطبيعة المخلوقة.

وإذا كان المسيح قد مُسِحَ ملكًا عندما أخذ المسحة من الروح القدس، ونلنا نحن مسحته (١ يو ٢: ٢٧)، فهل يمكن لروح العبودية أن يقيم مَلكًا؟ (٧: ص ٣٦٧). الروح القدس هو الذي يُعيد إلينا طبيعتنا الحرة الحقيقية (التبرير) لأن الله وحده هو القادر على أن يخلص الذين تحت عبودية الطبيعة. أما الآن فقد عرفنا الآب بواسطة الابن وعرفنا الابن بواسطة الروح القدس. فالروح الذي من عند الآب ينبثق روح الحق (يوحنا ١٥: ٢٦) هو الذي يعطي لنا الحرية (٧: ص ٣٦٩). الروح هو الله لأنه يملأ الكل مع الآب والابن. وعندما يصرخ المزمور "أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب" (مزمور ١٣٩: ٧-٨)، فالروح يحتوي الكل (٧: ص ٣٧١) ولا يوجد مكان يخلو منه الروح القدس، بل هو يملأ الكل .. لأن روح الرب ملأ المسكونة" (٧: ص ٣٧١).

إذن، التألُّه ليس بدعةً كما يدَّعي قومٌ عندنا، وإنما هو ثمار خدمة الرب يسوع والروح القدس نفسه. وهكذا يسأل القديس كيرلس: "كيف نكون آلهةً وهياكلَ لله". كما هو مكتوب - بواسطة الروح القدس" (٧: ص ٣٥٦)، "لكن نحن بحق آلهةً وهياكل .. لأن الروح القدس لا يمكن فصله عن جوهر الآب والابن، لأن أسماء الأقانيم تؤكد أُلوهية كل أقنوم. والسبب في ذلك هو عدم افتراق الاسم عن طبيعة الكائن الذي يُعرَف باسمٍ خاصٍّ به.

الكينونة المتبادَلة بين الأقانيم:

كلُّ أقنومٍ كائنٌ (مع ملاحظة ضعف كلمة "موجود") في الأقنومين الآخرين. يؤكِّد هذا التعبير وحدة الجوهر، وكل عمل إلهي في التدبير هو عمل الثالوث، حتى لو ظهر في الاستعلان الإلهي أنه خاصٌّ بأقنومٍ معيَّن. على سبيل المثال؛ تجسُّد الابن، خاصٌّ بالابن، ولكن إرسالية الابن والحَبَل به تم بالروح القدس، وصار هذا أحد أساسات التدبير، لأن الولادة الجديدة للإنسانية تمَّت فعلًا في بيت لحم. وعندما يسكن أو يحل فينا الروح القدس، "لا يمكن أن يصير في داخلنا اتحادٌ بالله إلَّا بواسطة الروح القدس. ومواعيد الله عن عطية الروح القدس مثل (يوحنا ١٤: ٢٣) تؤكِّد لنا أن روح الآب وهو روح الابن "لن يكون إلهًا حقيقيًّا بحسب طبيعته مَن يسكن في داخلنا إن كان الروح الذي قبلناه غريبًا أو منفصلًا من جهة الطبيعة عن الله" (٧: ص ٣٥٨).

الادعاء المعاصر بأننا نأخذ طاقة وقوة وليس أقنوم الروح القدس:

١– لا أدري من أين جاءت هذه الجسارة التي لم يعرفها التسليم الكنسي؟ لم يَدرِ الذين نشروا ادعاء الحلول المواهبي بأنهم يعلِّمون بالاغتراب الأبدي عن الثالوث، لأن الشركة في آخر غير الثالوث ليست فقط اغترابٌ عن الإله الحقيقي، بل هي أيضًا فقدانٌ لصورة المسيح فينا، وهي الصورة الحقيقية لما سنكون عليه في ملكوت ربنا يسوع، لأن الروح القدس هو وحده الذي يستطيع أن يرد إلينا ويجدد فينا صورة الرب يسوع (٢كو ٣: ٩).

٢– يؤدي هذا الادعاء إلى فقدان الحياة الأبدية التي لا يمكن فصلها عن صورة المسيح فينا لا سيما مجد الحياة الجديدة التي تكمل بالقيامة (فيلبي ٣: ٢١)، وهي أي الحياة الأبدية، ننالها هنا وبكمالٍ في القيامة.

٣– بما أن الروح هو روح الحياة الذي يقدِّس ويُغني بالحكمة، فتأهيل الخليقة

للتألُّه هو "سمو المخلوق بالروح القدس الذي يضع خصائصه الإلهية في داخل نفوس القديسين. هذا يؤكد أن مَن يسمو بنا ويصرخ فينا أبَّا أيها الآب (غلا ٤: ٦) لا يمكن أن يُحسَب كواحد من الخليقة (٧: ص ٣٦٣).

٤– الروح القدس يوزّع علينا نحن أنفسنا الحرية كصلاحٍ نابعٍ من ذاته، وليس مُستَمدًا من خارج طبيعته الإلهية (٧: ص ٣٦٦).

اعتراضات المكدونيين وغيرهم:

قدَّم القديس كيرلس ذات الأجوبة التي سطَّرها القديس أثناسيوس الرسولي في رسائله إلى سرابيون (الرسالة الأولى والثانية)، فالروح القدس ليس أحد الأرواح، بل هو روح الحياة الذي سوف يقيم أجسادنا في نهاية الزمان" (٧: ص ٣٧٣).

الروح الخالق هو الذي يجعل الإنسان حيًّا إلى الأبد، لأن الروح هو الذي شكَّل آدم على صورة الله (٧: ص ٣٧٦)، وهو عندما يعطي الكمال للوجود الإنساني الأبدي، لا سيما في القيامة وحياة الدهر الآتي، لا يمكن أن يكون مخلوقًا، بل خالقًا لأنه هو الذي يمنح الكمال للإنسانية الناهضة من الموت لأن "كل المخلوقات التي خُلِقت بالابن، خُلِقت بالروح القدس (٧: ص ٣٧٧)، فالروح هو الذي يحيي، وقد ردَّ الحياة للابن بعد صلبه. وهو الروح الذي أقام يسوع وسوف يقيم اجسادنا. (راجع رومية ٨: ١١).

ولأن القيامة هي المصير الأبدي لنا، تعذَّر علينا قبول التعليم بالحلول المواهبي. فالحياة تنبع من القادر أن يعطي الحياة كما لو كانت من ينبوعٍ صافٍ، ولذلك دعانا الرب أن نأتي إليه وأن نشرب (يو ٧: ٣٩) (٧: ص ٣٨٢). فكيف لا يكون الروح القدس الكائن في داخلنا قدوسًا بحسب طبعه الإلهي؟ هو روح الحكمة، والحكمة الإلهية الحقيقية (٧: ص ٣٨٥)، وعندما يسكن في داخلنا يهب الروح القدس ذاته لشخصٍ ما يجعله حكيمًا بواسطة عمله الذاتي فيه، لأن من يعطي الحكمة بالضرورة يكون هو

الحكمة وهو الله (٧: ص ٣٨٦).

لا يمكن لأي مسيحي صادق وقادر على الشهادة للحق أن يهرب وينكر أن الهجوم على سُكنى الروح القدس فينا، كانت معاداةً للأب متى المسكين، لا شهادةً للتعليم الرسولي.

الله ثالوث لأنه محبة

الله محبة ويُحبني

لذلك أعترفُ بالثالوث؛

الآب المحب

والابن المحبوب

والروح القدس المحبة

***

الله الآب محبة

الآب أعطاني

بنوة ابنه

لذلك، أُمجِّد الذي مجَّدني

***

الله محبة

وأرسل ابنه

تجسَّد من مريم

وصُلِبَ وقام

لكي يخلصني

لذلك، أهتفُ يسوعَ خلاصي

***

الله محبة وهو واحدٌ

أعلن حياته في محبته

الآب صار مصدر وجودي

والابن صار ينبوع خلاصي

لذلك، من غناه أعطاني

روحه القدوس

***

الله ثالوثٌ واحد

الآب أعلن حُبَّه الفريد

فأرسل ابنه الوحيد

وسكب روحَه في قلوبنا

لذلك، أعترف بالثالوث الواحد

***

الله محبة صالحٌ ورحيم

لذلك، أهتفُ يا أبَّا أيها الآب

علَّمني ابنُكَ الوحيد حقيقة التوحيد

ثالوثٌ واحدٌ جمع الوحدانية والتمايز

لذلك، أسجد للآب والابن والروح القدس

***

الله محبة في أقانيم ثلاثة؛

الآب المحب، والمحبة هي وجوده

الابن المحبوب، والمحبة استعلانه

الروح القدس وهو محبة الآب للابن

لذلك أعترف بالشركة في الثالوث

***

ثالوثٌ، المحبة هي طبعه

المحبة كيانه

المحبة بذلٌ وعطاء

لذلك، أسجد لمن فداني

***

الله محبة جاء إلينا

في جسد إنساني

وصار مثلنا

قدَّس جسده وأحياه

وهبه في سرٍّ مجيد

لذلك أؤمن وأعترف

بالابن ربي

وبالروح مُقدِّسي

***

الله محبة وقدَّسني

خصصني بروحه

فعرفتُ الثالوث في الوحدانية

لذلك، مع آبائي أُرتِّل قانون إيماني

د. جورج حبيب بباوي

+ + +